العلامة الشيخ جعفر السبحاني

الزيارة

في الكتاب والسنة

تحليل لمفهوم الزيارة وآثارها وأحكامها

دار الأضواء

الزيارة

في الكتاب والسنة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1425هـ - 2004 م

دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع
ت: ٢٧٠٨٧٣ - ٢٧١٧٨٨ - ف: ٢٧١٦٨٥
ص.ب: ٢٥/٤٠٠ غبيري - بيروت - لبنان
e-mail:adwaabooks@hotmail.com

الزيارة

في الكتاب والسنة

تحليل لمفهوم الزيارة وآثارها وأحكامها

العلامة المحقق

الشيخ جعفر السبحاني

دار الأضواء

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تبارك وتعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولَ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾. النساء/٦٤

وقال رسول الله ﷺ:

«زوروا القبور فإنّها تُذكّر الآخرة». ابن ماجة، السنن، ح ١٥٦٩

وقال النبيّ الأكرم ﷺ:

«من زار قبري وجبت له شفاعتي». الدارقطني ٢. ٢٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه وحده نستعين وعليه وحده نتوكل

والحمد لله ربّ العالمين، والصَّلاة والسلام على سيد رُسُله، وخاتم أنبيائه وآله ومن سار على خطاهم وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

يهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بالعقيدة الصحيحة لأنّها تشكّل حجر الزاوية في سلوكهم ومناراً يضيءُ دروبهم وزاداً لمعادهم.

ولهذا كرّسَ رسُولُ الله ﷺ في الفترة المكيّة من حياته الرسالية نفسه لإرساء أُسس التوحيد الخالص، ومكافحة الشرك والوثنية، ثم بنىٰ عليها في الفترة المدنية صَرحَ النظامِ الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسيّ.

ولهذا ـ ونظراً للحاجةِ المتزايدة ـ رأينا أن نقدّم للأُمةِ الإسلاميّة الكريمة دراسات عقائدية عابرة مستمدَّةٍ من كتاب اللهِ العزيز، والسُّنّةِ الشريفة الصحيحة، والعقل السليم، وما اتّفق عليه علماءُ الأُمةِ الكرام، والله الموفّق.

معاونيّة التعليم والبحوث الإسلاميّة

تمهيد

الإسلام دين الفطرة

عندما نقول إنّ الإسلام دين الفطرة فهذا لا يعني أنّ كل حكم جزئيّ منه يوافقها، بل يعني أنّ الأُصول الكلّية في مجالي العقائد والشريعة، تنسجم مع الفطرة وتوحي إليها بشكل واضح، ولذلك كانت تعاليم الأنبياء، وفي مقدّمتهم الشريعة الإسلامية، تثير مكنون الفطرة، لذا فهم قبل أن يكونوا معلّمين كانوا مذكّرين بما أودع الله سبحانه في فطرة الإنسان من ميولات نحوَ العبودية لله سبحانه، والانشداد إلى ما وراء الطبيعة، والجنوح إلى العدل ومكارم الأخلاق، والنفور عن الظلم ومساوئ العادات. فكأنَّ الفطرة أوّلُ مدرسة يتعلّم فيها الإنسان أصولَ المعارف ومكارمَ الأخلاق وآدابها، من دون معلّم، وهذا لطف وامتنان منه سبحانه لعباده ويعدّ الحجرَ الأساس لسائر الهدايات الإلهية الواصلة إليهم عن طريق أنبيائه ورسله.

وإلى ذلك يشير قوله سبحانه: ﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الروم/ ٣٠) فإنّ المراد من الدين في الآية مجموع العقيدة والشريعة، كما فسّره به مشاهير المفسّرين، وكلمة ﴿فِطْرَتَ اللهِ﴾ التي نصبت على الاختصاص تفسير للدين، فالدين ـ بتمام معنى الكلمة ـ يوافق فطرة الإنسان، بالمعنى الذي عرفت، أي أنّ أصوله وكلّياته تنسجم مع الفطرة وليست الآية وحيدة في بابها بل لها نظائر في الذكر الحكيم تؤكّد مضمونها، وتثبت بوضوح كون معرفة المحاسن والمساوئ والفجور والتقوى والميل إلى الفضائل، والانزجار عن الرذائل أمراً فطرياً إلى حدّ يقول سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس/٨) وفي آية أخرىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ● وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ● وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد/٨ ـ ١٠).

فالإنسان الطبيعي الذي لم يتأثّر بالمناهج البشرية، يدرك المحاسن والمساوئ، والفجور والتقوى والخير والشر، كرامة من الله سبحانه إليه.

ومن روائع الكلم ما روي عن الإمام عليّ عليه السلام حول تحديد دعوة الأنبياء وأنّ دورهم في مجال التربية تذكيرهم بمقتضيات الفطرة. يقول عليه السلام:

«فبعثَ الله فيهم رُسُلَه، وواتر إليهم أنبياءه، لِيستأدوهم ميثاقَ فطرته ويُذكّروهم منسيَّ نعمتِه، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويُثيروا لهم دفائنَ العقول»[1].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

فالشرائع السماوية كأنّها تستنطِق الفطرة وتُذكِّر بالنعمة المنسية بفعل الأهواء والدعايات الباطلة، وقد أُمر حملتها بإثارة ما دفن في فطرة الإنسان من جواهر المعقولات في مجالي العقيدة والشريعة.

وعلى ذلك فالشريعة ـ وفقَ الفطرة ـ مصباح ينير الدرب لكلّ ساع في طلب الحقّ. وكلّ فكرة أو ميل، توحي إليهما الفطرة فهو آية كونه حقّاً، وكلّ فكرة او جنوح، يناقض الفطرة وترفضهما فهو آية كونه باطلاً. ولأجل ذلك تخلينا عن الرهبانية والتعزّب ووأد البنين والبنات لأنها تخالف مقتضى الفطرة.

إنّ البحث في كون الشريعة الإلهية شريعة فطرية، يتطلّب مجالاً واسعاً لما يترتّب على البحث من نتائج مشرقة تعين على حل مشاكل أثارها خصوم الإسلام في مجال خاتمية الشريعة الإسلامية، حيث إنّهم يرفضون كون الدين ديناً خاتماً، بزعمهم أنّ الحياة الإنسانية حياة متغيّرة ومتحوّلة فكيف يمكن تدبير المجتمع المتغيّر، بقوانين ثابتة جامدة؟

ولكنّهم لعدم معرفتهم بحقيقة الشريعة الإسلامية، غفلوا عن أمر هام، وهو أنّ المتغيّر في الحياة الإنسانية هو القشر، لا اللبّ، وإلّا فالإنسان بما له من غرائز وميول علوية وسفلية لم يتغيّر ولن يتغيّر، وبهذه الميزة والخصوصية هو محكوم بالقوانين الثابتة.

فالإنسان القديم كان يُحبُّ العدلَ وينفر من الظلم ويميل إلى الزواج والحياة الاجتماعية وهكذا الإنسان في العصر الحاضر، إذن فالقانون في حقهما سواء وإن تغيّرت أجواء الحياة وقشورها ولباسها وظواهرها.

الصلة بين الأحياء والأموات

إنّ زيارة الإنسان لقبر حبيبه ومن كانت له به صلة روحية أو مادّية، هي ممّا تشتاق إليه النفوس السليمة، فكلّ من يعيش تحت السماء باسم الإنسان السويّ اذا فارقَ أحبّته وأقرباءه، لا يقطع علاقته بمن شغف قلبه حبّاً، بل هو على حبّه باق، ويريد أن يُجسّد محبَّته وشوقه بصور مختلفة، فهو تارةً يأوي إلى آثار حبيبه ورسوم داره وأطلاله فيحتفظ بألبسته وأثاثه وقلمه وخطوطه، ولا يكتفي بذلك بل يحاول أن يزور قبره وتربته حيناً بعد حين. كلّ ذلك بباعث ذاتي من صميم خلقته، فلا يصحّ لدين أُسُّه الفطرة أن يخالفه أو يمنعه من وصل أحبّائه وتعاهدهم.

لكن للإسلام أن يحدّدها ويذكر آدابها ويمنع عن بعض الأمور غير الدخيلة في صميمها، لكن ليس في وسعه بما أنّه منادٍ لدين الفطرة أن يقوم بقطع العلائق مع الأحبّة بتاتاً.

وعلى ضوء ذلك ترى أنّ السنّة حثّت على زيارة القبور وذكرت آثارها البنّاءة، ولو منعت في فترة خاصّة ـ لو صحّ المنع ـ فإنّما هو لمانع عن تطبيق الحكم وتنفيذه كما سيظهر لك.

هذا هو أصل الزيارة، وقضاء الفطرة على وفقه.

مضافاً إلى ذلك فلها آثار تربويّة وهي ما يلي:

الآثار التربوية لزيارة القبور

إنّ زيارة القبور تنطوي على آثار تربوية، وأخلاقية وذلك لأنّ مشاهدة المقابر التي تضمُّ في طياتها مجموعة كبيرة من الذين عاشوا في

هذه الحياة الدنيا، وكانوا بمكان عال من القدرة والسلطة، ثمّ انتقلوا إلى الآخرة، تؤدّي إلى الحدّ من روحِ الطمع، والحرص على الدنـيا، وربـما تُغيّر سلوك الإنسان لما يرى أنّ المنزل الأخير لحياته إنّما هو بيت ضيّق ومظلم باق فيه إلى ما شاء الله، فعند ذلك ربما يترك المظالم والمنكرات ويتوجّه إلى القيم والأخلاق.

وإلى هذا الجانب مـن الأثـر التـربوي يشـير النـبي الأكـرم ﷺ ويقول:

«كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها فإنّها ترقُّ القلوب، وتدمعُ العين وتذكّر الآخرة، ولا تقولوا هجراً»(١).

وفي لفظ آخر: «كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور، فـزوروا القـبور فإنّها تزهّد في الدنيا»(٢). وفي لفظ ثالث: «وتُذكّر الآخرة»(٣).

وعن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ زار قبر أُمّه ولم يستغفر لهـا. قـال: «أُمرتُ بالزيارة ونُـهيت عـن الاسـتغفار فـزوروا القـبور، فـإنّها تـذكّر الموت»(٤).

وعنه ﷺ أنّه قال: «زوروا القبور فإنّها تذكّركم الآخرة»(٥).

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال: ج ١٥، الحديث ٤٢٥٥٥ و ٤٢٩٩٨.

(٢) كنز العمال ١٥: الحديث ٤٢٥٥٢.

(٣) ابن ماجة، السنن ١: ٥٠١ ح ١٥٧١.

(٤) مسلم، الصحيح ٢: ٦٧١ ح ١٠٨ ـ أحمد بن حنبل، المسند ١: ٤٤٤ ـ ابن ماجة، السنن ١: ٦٧٦ ـ أبو داود، السنن ٢: ٧٢ ـ البيهقي، السنن ٤: ٧٦ ـ النسائي، السنن ٤: ٩٠ ـ الحاكم، المستدرك ١: ٣٧٦.

(٥) ابن ماجة، السنن ١: ٥٠٠ ح ١٥٦٩.

ويظهر من بعض الروايات أنّ النبيّ الأكرم ﷺ نهى يوماً عن زيارة القبور ثمّ رخّصها وكان النهي والترخيص من الله سبحانه.

ولعلّ النهي كان بملاك أنّ أكثر الأموات يومذاك كانوا من المشركين، فنهى النبيّ ﷺ عن زيارتهم ولمّا كثر المؤمنون بينهم رخّص بإذن الله.

ولعلّ النهي كان بملاك آخر وهو أنّ زيارة القبور تُذكّر الموتى والقتلى وتورث الجبن عن الجهاد، وإذ قوي الإسلام رخّص الزيارة[١].

وعن أمّ سلمة عنه ﷺ: «نَهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنّ لكم فيها عِبرة»[٢].

الآثار الاجتماعية لزيارة أكابر الدين

قد تعرّفت على الآثار التربوية لزيارة قبور المسلمين، وهنا آثار تختصّ بزيارة أكابر المسلمين ورؤسائهم، وفي طليعتهم زيارة النبي الأكرم ﷺ وهي: أنّ في زيارتهم نوعاً من الشكر والتقدير على تضحياتهم، وإعلاماً للجيل الحاضر بأنّ هذا هو جزاء الّذين يسلكون طريقَ الحقّ والهدىٰ والدفاع عن المبدأ والعقيدة.

ولأجل هذا الأثر الممتاز لزيارة صُلحاء الأمة، نجد أنّ الأُمم الحيّة تتسابق على زيارة مدفن رؤسائهم وشخصيّاتهم، الّذين ضحّوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل إحياء الشعب واستقلاله من أيدي المستعمرين

---

(١) الجناحي النجفي : منهج الرشاد : ١٤٤.

(٢) المتقي الهندي، كنز العمال ١٥ : ٦٤٧ ح٤٢٥٥٨.

والظالمين، ويقيمون الذكريات المئوية لإحياء معالمهم، ويعدّونه تعظيماً وتكريماً لأهدافهم.

وهذا هو العالم بغربه وشرقه، فيه قبور وأضرحة لشخصيّاته وعظمائه وصلحائه من غير فرق بين ديني ودنيوي، لأنّ الإنسان يرى زيارتهم تكريماً لهم وتأدية لحقوقهم ووفاءً لعهدهم، فكلّ ما يقوم به فهو بوحي الفطرة ودعوتها إلى ذلك.

إنّ القبور التي تحظىٰ باهتمام واحترام المؤمنين بالله في العالم ـ وخاصة المسلمين ـ هي في الغالب قبور حملة الرسالات الإصلاحيّين الذين أدّوا مهمّتهم على الوجه المطلوب.

وهؤلاء ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ الأنبياء والقادة الدينيّون الذين حملوا على عاتقهم رسالة السماء وضحّوا ـ من أجلها ـ بالنفس والمال والأحباب، وتحمّلوا أنواع المتاعب والمصاعب من أجل هداية الناس.

٢ ـ العلماء والمفكّرون الذين كانوا كالشّمعة تُحرقُ نفسها لتضيء للآخرين، وقد عاش هؤلاء حياة الزهد والحرمان، وقدّموا للعالم، البحوثَ القيّمة والتحقيقات الرائعة في مجالات العلم والفكر والطبيعة ومفاهيم السماء وعلوم الكون والمخلوقات وغير ذلك.

٣ ـ المجاهدون الثائرون الذين ضاقوا ذرعاً بما يعيشه المجتمع من الظلم وسحق الحقوق والتمييز العنصري أو القومي، فثاروا ضدّ الظلم والطغيان وطالبوا بحفظ كرامة الإنسان وأداء حقوقه، وأقاموا صرح العدالة بدمائهم الغالية.

إنّ أيّة ثورة أو تغيير اجتماعي لا يُقدَّر له النجاحُ إلّا بدفع الثمن، وإنّ ثمن الثورة التي تستهدف تدمير قصور الظالمين، وخنق أنفاسهم هو الدماء الزكية التي يُضحّي بها المقاتلون الأبطال لإعادة الحقّ والحرّية إلى الوطن الإسلامي.

إنّ الناس يزورون قبور هؤلاء ويذرفونَ عندها الدموع، ويتذكّرون بطولاتهم وتضحياتهم، ويُسعدون أرواحهم بتلاوة آيات من القرآن الحكيم هديّة إليهم، وينشدون قصائد في مدحهم وثنائهم وتقدير مواقفهم المشرقة.

إنّ زيارة مراقد هذه الشخصيات هي نوع من الشكر والتقدير على تضحياتهم، وإعلام للجيل الحاضر بأنّ هذا هو جزاء الذين يسلكون طريقَ الحقّ والهدى والفضيلة والدفاع عن المبدأ والعقيدة.

إنّ جزاءهم هو خلود الذكر الحسن والثناء الجميل، بالرغم من مرور الزمان على وفاتهم، وتعريفُ الناس بتلك الشخصيات الراقية وبمعتقداتهم التي ضحّوا من أجلها، واحترام مراقدهم وتجنّب كلّ ما يمسّ بكرامتها، لأنّ احترام قبورهم احترام لرسالاتهم وعقائدهم، كما أنّ أيّ نوع من الإهانة والتحقير تجاه مراقدهم هو في الحقيقة إهانة لرسالاتهم وتحقير لشخصيّتهم.

ثمّ إنّ لبعض أهل المعرفة تحليلاً علمياً رائعاً في زيارة النبي الأكرم نذكره بنصّه قال:

إعلم أنّ النفوس القوية القدسية، لا سيّما نفوس الأنبياء والأئمة عليهم السلام، اذا نفضوا أبدانهم الشريفة وتجرّدوا عنها، وصعدوا إلى

عالم التجرّد، وكانوا في غاية الإحاطة والاستيلاء على هذا العالم يكون العالم عندهم ظاهراً منكشفاً، فكلّ من يحضر مقابرهم لزيارتهم يطّلعون عليه، لا سيّما ومقابرهم مشاهدُ أرواحهم المقدّسة العلية، ومحالّ حضور أشباحهم البرزخيّة النورية، فإنّهم هناك يشهدون ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران/١٦٩)، وبما آتاهم الله من فضله فرحون، فلهم تمامُ العلم والاطّلاع بزائري قبورهم، وحاضري مراقدهم وما يصدر عنهم من السؤال والتوسّل والاستشفاع والتضرّع، فتهبّ عليهم نسماتُ ألطافهم، وتفيض عليهم من رشحات أنوارهم، ويشفعون إلى الله في قضاء حوائجهم، وإنجاح مقاصدهم، وغفران ذنوبهم وكشف كروبهم.

فهذا هو السرفي تأكّد استحباب زيارة النبيّ والأئمة عليهم السلام مع ما فيه من صلة لهم. وبرّهم وإجابتهم، وإدخال السرور عليهم، وتجدّد عهد ولايتهم، وإحياء أمرهم، وإعلاء كلمتهم، وتنكيت أعدائهم. وكلّ واحد من هذه الأُمور ممّا لا يخفى عظيم أجرُهُ وجزيل ثوابه.

وكيف لا تكون زيارتُهم أقربَ القربات، وأشرفَ الطاعات، ومع أنّ في زيارة المؤمن ـ من جهة كونه مؤمناً فحسب ـ عظيم الأجر وجزيل الثواب، وقد ورد به الحثّ والتوكيد والترغيب الشديد من الشريعة الطاهرة، ولذلك كثر تردّد الأحياء إلى قبور أمواتهم للزيارة، وتعارف ذلك بينهم، حتى صارت لهم سنّة طبيعية.

وأيضاً قد ثبت وتقرّر جلالة قدر المؤمن عند الله، وثوابُ صلته وبرّه وإدخال السرور عليه. وإذا كان الحال في المؤمن من حيث إنّه

مؤمن، فما ظنّك بمن عصمه الله من الخطأ، وطهّره من الرجس، وبعثه الله إلى الخلائق أجمعين، وجعله حجّة على العالمين، وارتضاه إماماً للمؤمنين، وقدوة للمسلمين ولأجله خلق السماوات والأرضين، وجعله صراطه وسبيلَه، وعينه ودليله، وبابه الذي يُؤتى منه، ونورَه الذي يستضاء به، وأمينَه على بلاده، وحبله المتّصل بينه وبين عباده، من رسل وأنبياء وأئمة وأولياء(١).

وفي الختام نقول: ليس الهدف من هذا التقديم تصويبَ بعض ما يقع عند الزيارة من محرّمات الأفعال فإنّها أُمور جانبيّة لاتمتّ لأصل الزيارة بصلة، والذي ندّعيه وعليه يشهد عمل العقلاء في العالم دينهم وغيره، أنّ للإنسان علاقة بمن كان يعشقه ويحبّه فلا يقطع علاقته به بموته بل يحتفظ بها بشكل خاص بعد الفراق أيضاً، وهذا شيء يلمسه الإنسان من صميم ذاته وليس لشريعة سماوية بما أنّها تجاوب الفطرة تمنعه من ذلك، بل لها أن تعدله وتحدّده وتعزل ما ليس منه عنه.

وها نحن نعالج الموضوع بالبحث في الأُمور التالية:

١ ـ زيارة القبور في الكتاب والسنّة النبوية.

٢ ـ أعلام الأُمة وزيارة النبي الأكرم.

٣ ـ زيارة النبيّ ﷺ في الكتاب.

٤ ـ زيارة النبي ﷺ في السنّة.

٥ ـ شدّ الرحال إلى زيارة قبر النبيّ الأعظم.

٦ ـ شبهات وتشكيكات حول زيارة النبيّ الأكرم.

٧ ـ خاتمة: تذكرة وإنذار.

---

(١) محمد مهدي النراقي، جامع السعادات ٣: ٣٩٨ و ٣٩٩.

١

زيارة القبور في الكتاب والسنّة

قد عرفت أنّ زيارة الإنسان لمن له به صلة روحية أو مادية، ممّا تشتاق إليه النفوس السليمة، بل هي من وحي الفطرة، ولأجل ذلك نرى أنّ الكتابَ والسنّة يدعمان أصلَ الزيارة بوجه خاص.

أمّا الكتاب فقوله سبحانه: **﴿ولا تُصَلِّ عَلى أحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ وماتُوا وهُم فاسِقُونَ﴾** (التوبة/٨٤).

إنّ الآية تسعىٰ لهدم شخصية المنافق، وهزّ العصا في وجوه حزبه ونظرائه. والنهي عن هذين الأمرين بالنسبة إلى المنافق، معناه ومفهومه مطلوبية هذين الأمرين (الصلاة والقيام على القبر) بالنسبة لغيره أي للمؤمن.

والآن يجب أن ننظر في قوله تعالى: **﴿ولا تَقُم عَلى قَبرِه﴾** ما معناه؟

هل المعنى هو القيام وقت الدفن فقط، حيث لا يجوز ذلك للمنافق ويستحب للمؤمن، أو المعنى أعم من وقت الدفن وغيره؟

إنّ بعض المفسّرين وإن خصّوا القيامَ نفياً وإثباتاً بـوقت الدفـن لكن البعض الآخر فسروه في كلا المـجالين بـالأعم مـن وقت الدفـن وغيره.

قال السيوطي في تفسيره: ولا تَقم على قبره لدفن أو زيارة(١).

وقال الآلوسي البغدادي: ويـفهم مـن كـلام بـعضهم أنّ «عـلى» بمعنى «عند» والمراد: لاتقف عند قبره للدفن أو للزيارة(٢).

وقال الشيخ إسماعيل حقّي البروسي: ﴿ولا تَقُم على قبرِه﴾ أي ولا تقف عند قبره للدفن أو للزيارة والدعاء(٣).

إلى غـير ذلك مـن المـفسرين، وقـد سـبقهم البـيضاوي فـي تفسيره(٤).

والحقّ مع من أخذ بإطلاق الآية وإليك توضيحه:

إنّ الآية؛ تتشكل من جملتين:

الأُولى: قوله تعالى: ﴿ولا تصلّ على أحدٍ منهم ماتَ أبداً﴾.

إنّ لفظة «أحد» بحكم ورودهـا فـي سـياق النـفي تـفيد العـموم والاستغراق لجـميع الأفـراد، ولفـظة «أبـداً» تـفيد الاسـتغراق الزمـني، فيكون معناها: لا تصل على أحد من المنافقين في أيّ وقت كان.

فمع الانتباه إلى هذين اللّفظين نعرف ـ بوضوح ـ أنّ المـراد مـن

---

(١) السيوطي، تفسير الجلالين: سورة التوبة في تفسيره الآية.

(٢) الآلوسي البغدادي، روح المعاني ١٠: ١٥٥.

(٣) البروسي، روح البيان ٣: ٣٧٨.

(٤) البيضاوي، أنوار التنزيل ١: ٤١٦، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

النهي عن الصلاة على الميّت المنافق ليس خصوص الصلاة على الميت عند الدفن فقط، لأنّها ليست قابلة للتكرار في أزمنة متعدّدة، ولو أُريد ذلك لم تكن هناك حاجة إلى لفظة «أبداً»، بل المراد من الصلاة في الآية مطلق الدعاء والترحّم سواء أكان عند الدفن أم غيره.

فإن قال قائل: إنّ لفظة «أبداً» تأكيد للاستغراق الافرادي لا الزماني.

فالجواب بوجهين:

١ ـ انّ لفظة «أحد» أفادت الاستغراق والشمول لجميع المنافقين بوضوح فلا حاجة للتأكيد.

٢ ـ انّ لفظة «أبداً» تستعمل في اللّغة العربية للاستغراق الزماني، كما في قوله تعالى: ﴿وَلا أنْ تَنكِحُوا أزواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أبَداً﴾ (الأحزاب/٥٣).

فالنتيجة أنّ المقصود هو النهي عن الترحّم على المنافق وعن الاستغفار له، سواء أكان بالصلاة عليه عند الدفن أم بغيرها.

الثانية: ﴿ولاَ تقُمْ عَلىٰ قَبْرِهِ﴾ إنّ مفهوم هذه الجملة ـ مع الانتباه إلى أنّها معطوفة على الجملة السابقة ـ هو: «لا تَقُم على قبر أحدٍ منهم مات أبداً» لأنّ كل ما ثبت للمعطوف عليه من القيد ـ أعني «أبداً» ـ يثبت للمعطوف أيضاً، ففي هذه الحالة لا يمكن القول بأنّ المقصود من القيام على القبر هو وقت الدفن فقط، لأنّ المفروض عدم إمكان تكرار القيام على القبر وقت الدفن، كما كان بالنسبة للصلاة، ولفظة «أبداً» المقدّرة في هذه الجملة الثانية تفيد إمكانية تكرار هذا العمل، فهذا يدل على أنّ القيام على القبر لا يختصّ بوقت الدفن.

وإن قال قائل: إنّ لفظة «أبداً» المقدّرة في الجملة الثانية معناها الاستغراق الافرادي.

قلنا: قد سبق الجواب عليه، وأنّ لفظة «أحد» للاستغراق الافرادي، لا لفظة «أبداً» فهي للاستغراق الزماني.

فيكون معنى الآية الكريمة: أنّ الله تعالى ينهى نبيه ﷺ عن مطلق الاستغفار والترحّم على المنافق، سواء كان بالصلاة أو مطلق الدعاء، وينهى عن مطلق القيام على القبر، سواء كان عند الدفن أو بعده.

ومفهوم ذلك هو أنّ هذين الأمرين يجوزان للمؤمن.

وبهذا يثبت جواز زيارة قبر المؤمن وجواز قراءة القرآن على روحه، حتى بعد مئات السنين.

هذا بالنسبة إلى المرحلة الأُولى وهي أصل الزيارة من وجهة نظر القرآن، وأمّا بالنسبة إليها من ناحية الأحاديث فإليك بيانها:

زيارة القبور في السنّة النبوية

إنّ النبيّ الأكرم ﷺ جسّد بعمله مشروعية زيارة القبور ـ مضافاً إلى أنّه أمر بها كما مرّ ـ وعلّم كيفيتها وكيف يتكلّم الإنسان مع الموتى، فقد ورد في غير واحد من المصادر، أنّه ﷺ زار البقيع، وإليك النصوص:

١ ـ روى مسلم عن عائشة أنّها قالت: كان رسول الله ﷺ كلّما كان ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون، غداً مؤجّلون وإنّا إن شاء الله

بكم لاحقون، اللّهمّ اغفر لأهل بقيع الغرقد»[١].

٢ ـ وعن عائشة في حديث طويل أنّ النبيّ ﷺ قال لها: «أتاني جبرئيل فقال: إنّ ربّك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم» قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: «قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ورحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون»[٢].

٣ ـ وروى ابن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يُعلّمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول: ـ في رواية أبي بكر ـ «السلام على أهل الديار» وفي رواية زهير: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنّا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»[٣].

٤ ـ عن ابن بريدة عن أبيه: قال رسول الله ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»[٤].

٥ ـ وروي في كنز العمال الروايات التالية: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون. وودتُ أنّا قد أُرينا إخواننا قالوا: أولسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد. إلخ»[٥].

٦ ـ «السلام عليكم يا أهل القبور من المؤمنين والمسلمين، يغفر

---

(١) مسلم، الصحيح ٧ : ٤١.
(٢) مسلم، الصحيح ٧ : ٤٤ ـ النسائي، السنن ٤ : ٩١.
(٣) مسلم، الصحيح ٧ : ٤٥.
(٤) مسلم، الصحيح ٧ : ٤٦ ـ الترمذي، السنن ٣ : ٣٧٠ ح ١٠٥٤ ـ النسائي، السنن ٤ : ٨٩.
(٥) مسلم، الصحيح، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة، الحديث ٢٤٩.

الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر»[١].

٧ ـ «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا وإياكم متواعدون غداً ومتواكلون وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون اللّهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»[٢].

٨ ـ «السلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم لنا فرط وإنّا بكم لاحقون، اللّهمّ لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنّا بعدهم»[٣].

٩ ـ «إنّي نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها بتذكيركم زيارتها خيراً»[٤].

١٠ ـ «نهيتكم عن ثلاث وأنا آمركم بهنّ؛ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنّ في زيارتها تذكرة»[٥]. إلى غير ذلك من الآثار النبوية الحاثّة على زيارة القبور، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى كنز العمال.

(١و٢) علاء الدين، كنز العمال ١٥ : ٢٤٧ الحديث ٤٢٥٦١ و ٤٢٥٦٢.

(٣و٤و٥) علاء الدين، كنز العمال ١٥ : ٢٤٨، الأحاديث ٤٢٥٦٣ و ٤٢٥٦٤ و ٤٢٥٦٥.

٢

أعلام الأُمة وزيارة قبر النبي الأكرم ﷺ

إذا كانت زيارة قبور المسلمين من السنن التي دعا إليها النبيّ الأكرم ﷺ وعمل بها بمرأىً ومسمع من نسائه وصحابته، فزيارة قبر سيد ولد آدم ومن أُنيطت إليه سعادة البشر أولى بها، لذا جرت سيرة المسلمين على زيارة قبره، وصرّح بها فقهاء الأُمة، وتضافرت السنّة على استحبابها.

ولنقدّم بعض الكلمات من أكابر الأُمة التي تعرب عن موقف المسلمين طيلة القرون تجاه المسألة، فقد قيّض سبحانه في كلّ عصر رجالاً يجاهرون بالحقّ، وينفون غبار الباطل عن وجهه نذكر منهم شخصيتين كبيرتين من السنّة والشيعة:

١ ـ الإمام تقي الدين السبكي الشافعي المتوفّى سنة ٧٥٦ هـ عليه سحائب الرحمة والرضوان فقد خصّ في كتابه «شفاء السقام في زيارة

خير الأنام» باباً لنقل نصوص العلماء على استحباب زيارة قبر سيدنا رسول الله، وقد بيّن أنّ الاستحباب أمر مجمع عليه بين المسلمين[1].

٢ ـ العلاّمة الكبير الأميني في الغدير الجزء ٥ / ١٠٩ ـ ١٢٥، فقد استدرك عليه بما لم يقف عليه الإمام السبكي، ونقل كلمات أعلام المذاهب الأربعة بما يتجاوز الأربعين كلمة. شكر الله مساعيهما.

وقد راجعنا أكثر المصادر التي نقلا عنها حسب ماحضرنا منها. واكتفينا بالنقل عنهما في غيره، وأضفنا بعض ما فات عنهما. ولعل المعثور عليه من الكلمات أقل مما لم يُعثر عليها.

كلمات أعلام المذاهب حول الزيارة

١ ـ قال أبو عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي الجرجاني الشافعي (م/٤٠٣هـ) بعد الحث على تعظيم النبيّ الأكرم ﷺ: فأمّا اليوم فمن تعظيمه زيارته[2].

٢ ـ قال أبو الحسن أحمد بن محمد المحاملي الشافعي (م/٤٢٥هـ): ويستحب للحاجّ إذا فرغ من مكّة أن يزور قبر النبيّ ﷺ[3].

٣ ـ قال القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري (م/٤٥٠هـ): ويستحب أن يزور النبي ﷺ بعد أن يحجّ ويعتمر[4].

---

(١) السبكي، شفاء السقام: ٦٥ ـ ٧٩ ونحن نغترف من هذا العين المعين ونذكر كلمات المحققين من أهل السنة حول زيارة النبي ﷺ.

(٢) المنهاج في شعب الإيمان، كما في شفاء السقام: ٦٥.

(٣) التجريد، كما في شفاء السقام: ٦٥.

(٤) نقله عنه السبكي في شفاء السقام: ٦٥.

٤ـ قال أقضى القضاة أبو الحسن الماوردي (م/٤٥٠هـ): فإذا عاد (ولي الحاج) سار بهم على طريق المدينة لزيارة قبر رسول الله ﷺ ليجمع لهم بين حج بيت الله عزّ وجلّ وزيارة قبر رسول الله رعاية لحرمته وقياماً بحقوق طاعته، وذلك وإن لم يكن من فروض الحج فهو من مندوبات الشرع المستحبة وعبادات الجميع المستحسنة[١].

وقال أيضاً في كتابه الحاوي: أمّا زيارة قبر النبيّ ﷺ فمأمور بها ومندوب إليها[٢].

٥ ـ حكى عبد الحقّ بن محمد الصقلي (م/٤٦٦هـ) عن الشيخ أبي عمران المالكي أنّ زيارة قبر النبي واجبة، قال عبد الحقّ: يعني من السنن الواجبة[٣].

٦ ـ قال ابو إسحاق إبراهيم بن محمد الشيرازي الفقيه الشافعي (م/٤٧٦هـ): ويستحب زيارة قبر رسول الله ﷺ[٤].

٧ ـ وممّن بسط الكلام في زيارة النبي الأكرم ﷺ الإمام الغزالي في كتاب الحج من إحياء العلوم قال: الجملة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها قال: من زارني بعد وفاتي فكأنّما زارني في حياتي. وقال ﷺ: «من وجد سعة ولم يَفِد إليَّ فقد جفاني» إلى أن قال: فمن قصد زيارة المدينة فليصلّ على رسول الله ﷺ في طريقه كثيراً فإذا وقع بصره على

---

(١) الأحكام السلطانية: ١٠٩، دار الفكر، بيروت.

(٢) الحاوي، كما في شفاء السقام: ٦٥.

(٣) تهذيب الطالب، كما في شفاء السقام: ٦٨.

(٤) المهذب في فقه الإمام الشافعي ١: ٢٣٣، دار الفكر، بيروت.

حيطان المدينة وأشجارها قال: اللّهمّ هذا حرم رسولك فاجعله لي وقاية من النار وأماناً من العذاب وسوء الحساب، ثم ذكر آداب الزيارة وصيغتها، كما ذكر زيارة الشيخين وزيارة البقيع بمن فيها، كزيارة قبر عثمان وقبر الحسن بن علي، ثم قال: ويصلي في مسجد فاطمة رضي الله عنها ويزور قبر إبراهيم ابن رسول الله وقبر صفيّة عمة رسول الله ﷺ فذلك كلّه بالبقيع، ويستحب له أن يأتي مسجد قباء في كلّ سبت ويصلّي فيه لما روي أنّ رسول الله ﷺ قال: «من خرج من بيته حتى يأتي مسجد قباء ويصلّي فيه كان له عدل عمرة»(١).

٨ ـ قال أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوداني الفقيه البغدادي الحنبلي (م/٥١٠هـ): وإذا فرغ من الحج استحبّ له زيارة قبر النبيّ ﷺ وقبر صاحبيه(٢).

٩ ـ قال القاضي عياض المالكي (م/٥٤٤هـ): وزيارة قبره ﷺ سنّة مجمع عليها وفضيلة مرغّب فيها، ثم ذكر عدّة من أحاديث الباب فقال: قال إسحاق بن إبراهيم الفقيه: وممّا لم يزل من شأن من حج المزور(٣) بالمدينة والقصد إلى الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ والتبرّك برؤية روضه ومنبره وقبره ومجلسه وملامس يديه ومواطن قدميه والعمود الذي استند إليه ومنزل جبرئيل بالوحي فيه عليه(٤).

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين ١: ٣٠٥و٣٠٦.

(٢) الهداية، كما في شفاء السقام: ٦٦.

(٣) قيل بكسر الميم وسكون الزاء وفتح الواو: مصدر ميمي بمعنى الزيارة.

(٤) الشفاء ٢: ١٩٤ ـ ١٩٧، ط دار الفيحاء، عمان.

١٠ ـ قال ابن هبيرة (م/٥٦٠هـ): اتّفق مالك والشافعي وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل ـ رحمهم الله تعالى ـ على أنّ زيارة النبي ﷺ مستحبة[١].

١١ ـ عقد الحافظ ابن الجوزي الحنبلي (م/٥٩٧هـ) في كتابه باباً في زيارة قبر النبيّ ﷺ وذكر حديث ابن عمر وحديث أنس اللّذين سنذكرهما[٢].

١٢ ـ قال أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله المالكي (م/٦١٢هـ): إذا كمل لك حجّك وعمرتك على الوجه المشروع لم يبق بعد ذلك إلاّ إتيان مسجد رسول الله ﷺ للسلام على النبيّ ﷺ والدعاء عنده، والسلام على صاحبيه، والوصول إلى البقيع وزيارة ما فيه من قبور الصحابة والتابعين، والصلاة في مسجد الرسول فلا ينبغي للقادر على ذلك تركه[٣].

١٣ ـ قال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين بن أحمد بن القاسم بن إدريس السامري الحنبلي (م/٦١٦هـ): وإذا قدم مدينة الرسول ﷺ استحبّ له أن يغتسل لدخولها. ثم ذكر أدب الزيارة وكيفية السلام والدعاء والوداع[٤].

١٤ ـ قال الشيخ موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي

---

(١) ابن الحاج، المدخل ١ : ٢٥٦.

(٢) مثير العزام الساكن إلى أشرف الأماكن، كما في شفاء السقام : ٦٧.

(٣) المناسك، كما في الغدير ٥ : ١١٠.

(٤) المستوعب، كما في شفاء السقام : ٦٧.

الحنبلي (م/٦٢٠هـ): يستحب زيارة قبر النبيّ ﷺ، ثم ذكر حديثي ابن عمر وأبي هريرة من طريق الدار قطني وأحمد(١).

١٥ ـ قال محي الدين النووي الشافعي (م/٦٧٧هـ): ويُسنُّ شرب ماء زمزم وزيارة قبر رسول الله ﷺ بعد فراغ الحج(٢).

١٦ ـ قال نجم الدين بن حمدان الحنبلي (م/٦٩٥هـ): ويسنّ لمن فرغ عن نسكه زيارة قبر النبي ﷺ وقبر صاحبيه رضي الله عنهما، وله ذلك بعد فراغ حجة وإن شاء قبل فراغه(٣).

١٧ ـ قال القاضي الحسين: إذا فرغ من الحجّ فالسنّة أن يقف بالملتزم ويدعو، ثم يشرب من ماء زمزم، ثم يأتي المدينة ويزور قبر النبي ﷺ(٤).

١٨ ـ قال القاضي أبو العباس أحمد السروجي الحنفي (م/٧١٠هـ): إذا انصرف الحاج والمعتمرون من مكّة فليتوجّهوا إلى طيبة مدينة رسول الله ﷺ وزيارة قبره فإنّها من أنجح المساعي(٥).

١٩ ـ قال الإمام القدوة ابن الحاج محمد بن محمد العبدري القيرواني المالكي (م/٧٣٨هـ) بعد أن ذكر لزوم وكيفية زيارة الأنبياء والرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ والتوسّل بهم إلى الله تعالى وطلب الحوائج منهم قال: وأمّا في زيارة سيد الأولين والآخرين

---

(١) المغني ٣: ٧٨٨.
(٢) المنهاج، المطبوع بهامش شرح المغني ١: ٤٩٤ ـ كما في الغدير ٥: ١١١.
(٣) الرعاية الكبرى في الفروع الحنبلية، كما في شفاء السقام: ٦٧.
(٤) نقله السبكي في شفاء السقام: ٦٦.
(٥) الغاية، كما في شفاء السقام: ٦٦.

صلوات الله عليه وسلامه فكل ما ذكر يزيد عليه أضعافه، أعني في الانكسار والذلّ والمسكنة، لأنّه الشافع المشفّع الذي لا تُردّ شفاعته، ولا يُخيّب من قصده، ولا من نزل بساحته، ولا من استعان أو استغاث به، إذ أنّه عليه الصلاة والسلام قطب دائرة الكمال وعروس المملكة ـ إلى أن قال ـ: فمن توسّل به أو استغاث به أو طلب حوائجه منه، فلا يرد ولا يخيب لما شهدت به المعاينة والآثار، ويحتاج إلى الأدب الكلّي في زيارته عليه الصلاة والسلام، وقد قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إنّ الزائر يشعر بنفسه بأنّه واقف بين يديه عليه الصلاة والسلام كما هو في حياته(١).

٢٠ ـ وقال شمس الدين ابن قدامة الأندلسي: فإذا فرغ من الحج استحبَّ زيارة قبر النبيّ ﷺ وقبر صاحبيه ـ رضي الله عنهما ـ واستدلّ على ذلك بروايتي ابن عمر، وأبي هريرة(٢).

٢١ ـ قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي المقدسي: إنّ ابن تيمية ذكر في مناسكه «باب زيارة قبر النبي ﷺ: إذا أشرف على مدينة النبيّ ﷺ قبل الحج أو بعده، فليقل ما تقدم: إذا دخل استحب له أن يغتسل، نصّ عليه الإمام أحمد، فإذا دخل المسجد بدأ برجله اليمنى وقال: بسم الله والصلاة على رسول الله، اللّهمّ اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك، ثم يأتي الروضة بين القبر والمنبر فيصلّي بها ويدعو بما شاء، ثم يأتي قبر النبيّ فيستقبل جدار القبر ولا

---

(١) ابن الحاج، المدخل ١: ٢٥٧.

(٢) ابن قدامة، الشرح الكبير على المقنع ٣: ٤٩٤.

يمسّه ولا يقبّله، ويجعل القنديل الذي في القبلة عند القبر على رأسه ليكون قائماً وجاه النبي، ويقف متباعداً كما يقف لو ظهر في حياته بخشوع وسكون منتكس الرأس، غاض الطرف، متحضراً بقلبه جلالة موقفه ثم يقول:

السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يانبيّ الله وخيرته من خلقه، السلام عليك يا سيّد المرسلين، وخاتم النبيين، وقائد الغرّ المحجّلين، أشهد أنْ لا إله إلّا الله وأشهد أنّك رسول الله، أشهد أنّك قد بلّغت رسالات ربك، ونصحت لأُمتك، ودعوت إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وعبدت الله حتى أتاك اليقين فجزاك الله أفضل ماجزى نبياً ورسولاً عن أُمته اللّهمّ آته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً[١].

٢٢ ـ ألّف الشيخ تقي الدين السبكي الشافعي (م/٧٥٦هـ) كتاباً حافلاً في زيارة النبيّ الأعظم ﷺ وأسماه «شفاء السقام في زيارة خيرالأنام» ردّاً على ابن تيمية، وممّا قال فيه: لاحاجة إلى تتبّع كلام الأصحاب في ذلك مع العلم بإجماعهم وإجماع سائر العلماء عليه. والحنفية قالوا: إنّ زيارة قبر النبيّ ﷺ من أفضل المندوبات والمستحبّات بل تقرب من درجة الواجبات، وممّن صرّح بذلك منهم أبو منصور محمد بن مكرم الكرماني في مناسكه، وعبد الله بن محمود

---

(١) عبد الهادي الحنبلي، الصارم المنكي في الرد على السبكي: ٧، الطبعة الأُولى، القاهرة المطبعة الخيرية. ولو صحّ ما نقله يحمل على تبدلّ الاجتهاد والمعروف أنه نهى عن السفر للزيارة لا عن أصلها. وسيوافيك بعض شبهاته.

بن بَلَدحي في شرح «المختار» وفي فتاوى أبي الليث السمرقندي في باب أداء الحجّ[١].

ثم قال: وكيف يتخيّل في أحد من السلف نهيهم من زيارة المصطفى ﷺ وهم مجمعون على زيارة سائر الموتى، فالنبي ﷺ وسائر الأنبياء الذين ورد فيهم أنّهم أحياء كيف يقال فيهم هذه المقالة[٢] وحكى عن القاضي عياض وأبي زكريا النووي إجماع العلماء والمسلمين على استحباب الزيارة[٣].

وقال أيضاً: وإذا استحبّ زيارة قبر غيره ﷺ فقبره أولى لما له من الحق ووجوب التعظيم[٤]. ثم إنّه استدلّ في الباب السادس على أنّ السفر إلى الزيارة قربة بالكتاب والسنّة والإجماع ـ إلى أن قال ـ:

الرابع: الإجماع إطباق السلف والخلف، فإنّ الناس لم يزالوا في كل عام إذا قضوا الحج يتوجّهون إلى زيارته ﷺ، فمنهم من يفعل ذلك قبل الحج، هكذا شاهدناه وشاهده من قبلنا وحكاه العلماء عن الأعصار القديمة... ومن ادّعى أنّ هذا الجمع العظيم مجمعون على الخطأ فهو المخطئ[٥].

٢٣ ـ قال زين الدين أبو بكر بن الحسين بن عمر القريشي العثماني المصري المراغي (م/٨١٦هـ): وينبغي لكلّ مسلم اعتقاد كون

---

(١) السبكي، شفاء السقام: ٦٦، طبع دار الجيل.

(٢) المصدر نفسه: ٧٩.

(٣) المصدر نفسه: ٨٣.

(٤) المصدر نفسه: ٨٤.

(٥) المصدر نفسه: ١٠٠.

زيارته ﷺ قربة عظيمة، للأحاديث الواردة في ذلك، ولقوله تعالى: ﴿ولوْ أنَّهم إذْ ظَلَموا أنفسَهُمْ جاءُوكَ فَاستغفَروا اللهَ وٱستغفَرَ لَهُمُ الرَّسولُ﴾ الآية لأنّ تعظيمه لاينقطع بموته[1].

٢٤ ـ قال السيد نور الدين السمهودي (م/٩١١هـ) بعد ذكر أحاديث الباب: وأمّا الإجماع، فأجمع العلماء على استحباب زيارة القبور للرجال كما حكاه النووي بل قال بعض الظاهرية بوجوبها، وقد اختلفوا في النساء، وقد امتاز القبر الشريف بالأدلة الخاصة به. قال السبكي: ولهذا أقول: إنّه لا فرق في زيارته بين الرجال والنساء. وقال الجمال الريمي في «التفقيه»: يستثنى من محل الخلاف قبر النبي ﷺ وصاحبيه ثم قال: وقد ذكر ذلك بعض المتأخرين وهو الدمنهوري الكبير، وأضاف إليه قبور الأولياء والصالحين والشهداء[2].

٢٥ ـ قال الحافظ أبو العباس القسطلاني المصري (م/٩٢٣هـ): إعلم أنّ زيارة قبره الشزيف من أعظم القربات وأرجا الطاعات والسبيل إلى أعلىالدرجات، ومن اعتقد غير هذا فقد انخلع من ربقة الإسلام، وخالف الله ورسوله وجماعة العلماء الأعلام، وقد أطلق بعض المالكية وهو أبو عمران الفاسي كما ذكره في «المدخل» عن «تهذيب الطالب» لعبد الحق: أنّها واجبة، قال: ولعلّه أراد وجوب السنن المؤكدة، وقال القاضي عياض: إنّها من سنن المسلمين مجمع عليها وفضيلة مرغّب فيها...

---

(١) المواهب اللدنية للقسطلاني ٤: ٥٧٢ المكتب الإسلامي، بيروت. والآية من سورة النساء: ٦٤.

(٢) وفاء الوفا، المجلد الثاني ٤: ١٣٦٢، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ثم قال: وقد صحّ عن عمر بن عبد العزيز كان يبرد البريد للسلام على النبيّ ﷺ فالسفر إليه قربة لعموم الأدلة، ومن نذر الزيارة وجبت عليه كما جزم به ابن كج من أصحابنا، إلى أن قال: وللشيخ تقي الدين ابن تيمية هنا كلام شنيع عجيب يتضمن منع شدّ الرحال للزيارة النبوية وأنّه ليس من القرب بل يضد ذلك، ورد عليه الشيخ تقي الدين السبكي في «شفاء السقام» فشفى صدور المؤمنين[١].

٢٦ ـ ذكر شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا الأنصاري الشافعي (م/٩٢٥هـ) في باب مايستحب لمن حج وقال: ثم يزور قبر النبيّ ﷺ ويسلّم عليه وعلى صاحبيه بالمدينة المشرّفة[٢].

٢٧ ـ قال ابن حجر الهيثمي المكي الشافعي (م/٩٧٣هـ) بعد ما استدلّ على مشروعية زيارة قبر النبي بعدة أدلة منها: الإجماع. فإن قلت: كيف تحكي الإجماع على مشروعية الزيارة والسفر إليها وطلبها وابن تيمية من متأخري الحنابلة منكر لمشروعية ذلك كلّه كما رآه السبكي في خطه؟. وقد أطال ابن تيمية الاستدلال لذلك بما تمجّه الأسماع، وتنفر عنه الطباع، بل زعم حرمة السفر لها إجماعاً وأنّه لاتقصّر فيه الصلاة، وأنّ جميع الأحاديث الواردة فيها موضوعة، وتبعه بعض من تأخّر عنه من أهل مذهبه. قلت: من هو ابن تيمية؟ حتى ينظر إليه أو يقول في شيء من مورد الدين عليه، وهل هو إلّا كما قال جماعة من الأئمة الذين تعقّبوا كلماته الفاسدة وحججه الكاسدة حتى أظهروا عوار

---

(١) المواهب اللدنية ٤: ٥٧٠ المكتب الإسلامي، بيروت.

(٢) أسنى المطالب في شرح روض الطالب ١: ٥٠١.

سقطاته، وقبائح أوهامه، وغلطاته كالعزّ بن جماعة: عبد أضلّه الله تعالى وأغواه، وألبسه رداء الخزي وأرداه، وبواه من قوة الافتراء والكذب ما أعقبه الهوان، وأوجب له الحرمان ولقد تصدّى شيخ الإسلام وعالم الأنام المجمع على جلالته واجتهاده وصلاحه وإمامته، التقيّ السبكي ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ للردّ عليه في تضيف مستقل أفاد فيه وأجاد، وأصاب وأوضح بباهر حججه طريق الصواب ثم قال:

هذا ما وقع من ابن تيمية ممّا ذكر وإن كان عثرة لا تقال أبداً، ومصيبة يستمر شؤمها سرمداً، وليس بعجب فإنّه سوّلت له نفسه وهواه وشيطانه أنّه ضرب مع المجتهدين بسهم صائب، ومادرى المحروم أنّه أتى بأقبح المعائب، إذ خالف إجماعهم في مسائل كثيرة، وتدارك على أئمتهم لا سيما الخلفاء الراشدين باعتراضات سخيفة، شهيرة حتى تجاوز إلى الجناب الأقدس، المنزّه سبحانه عن كل نقص، والمستحق لكل كمال أنفس، فنسب إليه الكبائر والعظائم، وخرق سياج عظمته بما أظهره للعامة، على المنابر من دعوى الجهة والتجسيم، وتضليل من لم يعتقد ذلك من المتقدمين والمتأخرين، حتى قام عليه علماء عصره وألزموا السلطان بقتله أو حبسه وقهره، فحبسه إلى أن مات، وخمدت تلك البدع، وزالت تلك الضلالات، ثم انتصر له أتباع لم يرفع الله لهم رأساً، ولم يظهر لهم جاهاً، ولا بأساً، بل ضربت عليهم الذلّة والمسكنة وباءُوا بغضب من الله بما عصوا وكانوا يعتدون[1].

---

(١) الجوهر المنظّم في زيارة القبر المكرّم: ٢٢، طبع سنة ١٢٧٩ بمصر.

ونقل حسن العدوي الحمزاوي عنه أيضاً ما هذه عبارته:

إعلم وفّقني الله وإياك لطاعته وفهم خصوصيات نبيّه ﷺ والمسارعة إلى مرضاته: أنّ زيارته ﷺ مشروعة مطلوبة بالكتاب والسنّة وإجماع الأُمة وبالقياس ـ إلى أن قال ـ: وأمّا الإجماع فقد حكاه الإمام السبكي قال: ولا عبرة بما تفرّد به ابن تيمية وتبعه بعض من تأخر عنه من أهل مذهبه(١).

٢٨ ـ قال الشيخ محمد الخطيب الشربيني (م/٩٧٧هـ): أمّا زيارته ﷺ فمن أعظم القربات للرجال والنساء، وألحق الدمنهوري به قبور بقية الأنبياء والصالحين والشهداء وهو ظاهر(٢).

وقال في موضع آخر بعد بيان مندوبية زيارة قبره الشريف ﷺ وذكر جملة من أدلّتها: ليس المراد اختصاص أدب الزيارة بالحج فإنّها مندوبة مطلقاً بعد حجّ أو عمرة أو قبلهما أو لا مع نسك، بل المراد تأكّد الزيارة فيها(٣).

٢٩ ـ قال الشيخ زين الدين عبد الرؤوف المناوي (م/١٠٣١هـ): وزيارة قبره ﷺ الشريف من كمالات الحج، بل زيارته عند الصوفية فرض وعندهم الهجرة إلى قبره كهي إليه حيّاً(٤).

وقال في موضع آخر: إنّ أثر الزيارة إمّا الموت على الإسلام مطلقاً

---

(١) حسن العدوي الحمزاوي، كنز المطالب: ١٧٩ و ١٨١، الطبعة الحجرية.

(٢) مغني المحتاج ١: ٣٦، ط دار الفكر.

(٣) المصدر نفسه ١: ٥١٢.

(٤) شرح الجامع الصغير ٦: ١٦٠.

لكل زائر، وإمّا شفاعة تخصّ الزائر أخص من العامة، وقوله: شفاعتي في الإضافة إليه تشريف لها، إذ الملائكة وخواص البشر يشفعون فللزائر نسبة خاصة فيشفع هو فيه بنفسه والشفاعة تعظّم بعظم الزائر(١).

٣٠ ـ قال الشيخ حسن بن عمار الشرنبلالي: زيارة النبي ﷺ من أفضل القربات وأحسن المستحبّات تقرب من درجة ما لزم من الواجبات، فإنّه ﷺ حرض عليها وبالغ في الندب إليها. قال: «من وجد سعة فلم يزرني فقد جفاني» وقال ﷺ: «من زار قبري وجبت له شفاعتي». وقال ﷺ: «من زارني بعد مماتي فكأنّما زارني في حياتي» إلى أن قال: وممّا هو مقرر عند المحققين أنه ﷺ حيّ يُرزق ممتّع بجميع الملاذ والعبادات، غير أنّه حجب عن أبصار القاصرين عن شرف المقامات(٢).

٣١ ـ وقال قاضي القضاة شهاب الدين الخفاجي الحنفي المصري (م/١٠٦٩هـ): واعلم أنّ هذا الحديث (شدّ الرحال إلى المساجد) هو الذي دعا ابن تيمية ومن معه كابن القيم إلى مقالته الشنيعة التي كفروه بها، وصنف فيها السبكي مصنّفاً مستقلاً، وهي منعه من زيارة قبر النبي ﷺ وهو كما قيل:

لمهبط الوحي حقّاً ترحل النجب   وعند ذاك المرجيّ ينتهي الطلب

فتوهم أنّه حمى جانب التوحيد بخرافات لاينبغي ذكرها فإنّها لا

---

(١) المصدر نفسه: ٩٣.

(٢) مراقي الفلاح في شرح متن نور الايضاح: ٢٩٢ ـ ٢٩٣، ط مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر.

تصدر عن عاقل فضلاً عن فاضل سامحه الله تعالى[١].

٣٢ـ قال الشيخ عبد الرحمن شيخ زاده (م/٩٨٧هـ): من أحسن المندوبات، بل يقرب من درجة الواجبات زيارة قبر نبينا وسيدنا محمد ﷺ وقد حرّض ﷺ على زيارته وبالغ في الندب إليها[٢].

٣٣ـ قال الشيخ محمد بن علي بن محمد الحصني المعروف بعلاء الدين الحصكفي الحنفي المفتي بدمشق (م/١٠٨٨هـ): وزيارة قبره ﷺ مندوبة بل قيل واجبة لمن له سعة[٣].

٣٤ـ قال أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي المصري (م/١١٣٢هـ): قد كانت زيارته مشهورة في زمن كبار الصحابة معروفة بينهم، لمّا صالح عمر بن الخطاب أهل بيت المقدس جاءه كعب الأحبار فأسلم ففرح به وقال: هل لك أن تسير معي إلى المدينة وتزور قبره ﷺ وتتمتّع بزيارته؟ قال: نعم[٤].

٣٥ـ قال أبو الحسن السندي محمد بن عبد الهادي الحنفي (م/١١٣٨هـ): قال الدميري: فائدة زيارة النبيّ ﷺ من أفضل الطاعات وأعظم القربات لقوله ﷺ: «من زار قبري وجبت له شفاعتي إلخ»[٥].

٣٦ـ قال محمد بن عبد الوهاب: تسنّ زيارة النبي ﷺ إلّا أنّه

(١) شرح الشفاء ٣: ٥٦٦، طبع المطبعة العثمانية در سعادت، سنة ١٣١٥.
(٢) مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ١: ٣١٢، ط دار إحياء التراث العربي.
(٣) الدر المختار في شرح تنوير الابصار، آخر كتاب الحج: ١٩٠، مطبعة الفتح الكريم، سنة ١٣٠٢.
(٤) شرح المواهب ٨: ٢٩٩، الطبعة الأولى بالمطبعة الأولى الأزهرية المصرية، سنة ١٣٠٢.
(٥) شرح سنن ابن ماجة ٢: ٢٦٨، كما في الغدير ٥: ١٢٠.

لا يشدّ الرحال إلّا لزيارة المسجد والصلاة فيه[١].

٣٧ ـ قال الشيخ محمد بن علي الشوكاني (م/١٢٥٠هـ): قد اختلفت فيها (في زيارة النبي ﷺ، أمّا أقوال أهل العلم، فذهب الجمهور إلى أنّها مندوبة، وذهب بعض المالكية وبعض الظاهرية إلى أنّها واجبة، وقالت الحنفية: إنّها قريبة من الواجبات، وذهب ابن تيمية الحنبلي حفيد المصنّف المعروف بشيخ الإسلام إلى أنها غير مشروعة. ثم فصل الكلام في الأقوال، إلى أن قال وفي آخر كلامه: احتجّ أيضاً من قال بالمشروعية بأنّه لم يزل دأب المسلمين القاصدين للحج في جميع الأزمان على تباين الديار واختلاف المذاهب، الوصول إلى المدينة المشرّفة لقصد زيارته، ويعدون ذلك من أفضل الأعمال، ولم ينقل أن أحداً أنكر ذلك عليهم فكان إجماعاً[٢].

٣٨ ـ قال الشيخ محمد أمين ابن عابدين (م/١٢٥٣هـ): زيارة النبي ﷺ مندوبة بإجماع المسلمين إلى ان قال: وهل تستحب زيارة قبره ﷺ للنساء؟ الصحيح، نعم، بلا كراهة بشروطها على ما صرّح به بعض العلماء، وأمّا على الأصح من مذهبنا وهو قول الكرخي وغيره من أنّ الرخصة في زيارة القبور ثابتة للرجال والنساء جميعاً فلا إشكال، وأمّا على غيره فذلك نقول بالاستحباب لإطلاق الأصحاب[٣].

٣٩ ـ قال الشيخ محمد بن السيد درويش الحوت البيروني

---

(١) الهدية السنية، الرسالة الثانية.

(٢) نيل الأوطار ٤ : ٣٢٤.

(٣) رد المحتار على الدر المختار ٥ : ٢٧٨.

(م/١٢٧٦هـ): زيارة النبي ﷺ مطلوبة لأنّه واسطة الخلق، وزيارته بعد وفاته كالهجرة إليه في حياته، ومن أنكرها فإن كان ذلك إنكاراً لها من أصلها فخطأُه عظيم، وإن كان لما يعرض من الجهلة ممّا لاينبغي فليبيّن ذلك[1].

٤٠ ـ قال الشيخ إبراهيم الباجوري الشافعي (م/١٢٧٧هـ): وتسنّ زيارة قبره ﷺ ولو لغير حاج ومعتمر كالذي قبله، ويسنّ لمن قصد المدنية الشريفة لزيارته ﷺ أن يكثر من الصلاة والسلام عليه في طريقه، ويزيد في ذلك إذا رأى حرم المدينة وأشجارها، ويسأل الله أن ينفعه بهذه الزيارة ويتقبّلها منه. ثم ذكر جملة كثيرة من آداب الزيارة وألفاظها[2].

٤١ ـ قال الشيخ حسن العدوي الحمراوي الشافعي (م/١٣٠٣هـ)، بعد نقل جملة من الأحاديث الواردة في أنّ النبي ﷺ يسمع سلام زائريه ويرد عليهم: إذا علمت ذلك علمت أنّ ردّه ﷺ سلام الزائر عليه بنفسه الكريمة ﷺ أمر واقع لا شكّ فيه، وإنّما الخلاف في ردّه على المسلِّم عليه من غير الزائرين. فهذه فضيلة عظيمة ينالها الزائرون لقبره ﷺ فيجمع الله لهم بين سماع رسول الله ﷺ لأصواتهم من غير واسطة وبين ردّه عليهم سلامهم بنفسه، فأنّى لمن سمع بهذين بل بأحدهما أن يتأخّر عن زيارته ﷺ؟ أو يتوانى عن المبادرة إلى المثول في حضرته ﷺ تالله

(١) التعليق على «حسن الأثر»: ٢٤٦ ـ كما في الغدير ٥: ١٢١.

(٢) حاشية على شرح ابن الغزي على متن الشيخ أبي شجاع في الفقه الشافعي ١: ٣٤٧ ـ كما في الغدير ٥: ١٢٢.

ما يتأخر عن ذلك مع القدرة عليه إلّا من حق عليه البعد من الخيرات، والطرد عن مواسم أعظم القربات، أعاذنا الله تعالى من ذلك بمنّه وكرمه آمين. وعلم من تلك الأحاديث أيضاً أنّه ﷺ حيّ على الدوام، إذ من المحال العادي أن يخلو الوجود كلّه من واحد يسلّم عليه في ليل أو نهار، فنحن نؤمن ونصدق بأنّه ﷺ حيّ يرزق، وأنّ جسده الشريف لا تأكله الأرض، وكذاسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والإجماع على هذا[(١)].

٤٢ ـ قال السيد محمد بن عبد الله الجرداني الدمياطي الشافعي (م/١٣٥٧هـ): زيارة قبره ﷺ من أعظم الطاعات وأفضل القربات حتى أنّ بعضهم جرى على أنها واجبة فينبغي أن يحرّض عليها، وليحذّر كل الحذر من التخلّف عنها مع القدرة وخصوصاً بعد حجة الإسلام لأنّ حقّه ﷺ على أُمته عظيم، ولو أنّ أحدهم يجيء على رأسه أو بصره من أبعد موضع من الأرض لزيارته ﷺ لم يقم بالحق الذي عليه لنبيه جزاه الله عن المسلمين أتم الجزاء.

ويسنّ لمن قصد المدينة الشريفة (إلخ) ثم فصل القول في آداب الزيارة وذكر التسليم على الشيخين وزيارة السيدة فاطمة وأهل البقيع والمزارات المشهورة وهي نحو ثلاثين موضعاً كما قال وما أحسن ما قيل:

هنيئاً لمن زار خير الورى وحطّ عن النفس أوزارها
فإنّ السعادة مضمونة لمن حلّ طيبة أو زارها[(٢)]

---

(١) كنز المطالب: ١٩٥، الطبعة الحجرية.

(٢) مصباح الظلام ٢: ١٤٥ ـ كما في الغدير ٥: ١٢٣.

٤٣ ـ قال الشيخ عبد الباسط بن الشيخ علي الفاخوري مفتي بيروت: الفصل الثاني عشر في زيارة النبي ﷺ وهي متأكّدة مطلوبة ومستحبة محبوبة، وتسنّ زيارته في المدينة كزيارته حيّاً وهو في حجرته حيّ يرد على من سلّم عليه السلام، وهي من أنجح المساعي وأهمّ القربات وأفضل الأعمال وأزكى العبادات، وقد قال ﷺ: «من زار قبري وجبت له شفاعتي». ومعنى «وجبت» ثبت بالوعد الصادق الذي لابدّ من وقوعه وحصوله، وتحصل الزيارة في أيّ وقت وكونها بعد تمام الحج أحب، يجب على من أراد الزيارة التوبة من كل شيء يخالف طريقه وسنته ﷺ إلى أن قال: ويستحب التبرك بالاسطوانات التي لها فضل، وشرف وهي ثمانية: اسطوانة محل صلاته ﷺ، واسطوانة عائشة (رض). وتسمى اسطوانة القرعة، واسطوانة التوبة محل اعتكافه ﷺ، واسطوانة السرير، واسطوانة عليّ عليه السلام واسطوانة الوفود، واسطوانة جبرئيل عليه السلام، واسطوانة التهجّد[1].

٤٤ ـ قال الشيخ عبد المعطي السقّا: في زيارة النبيّ ﷺ إذا أراد الحاج أو المعتمر الانصراف من مكة ـ أدام الله تشريفها وتعظيمها ـ طلب منه أن يتوجّه إلى المدينة المنوّرة للفوز بزيارته عليه الصلاة والسلام فإنّها من أعظم القربات وأفضل الطاعات وأنجح المساعي المشكورة، ولايختص طلب الزيارة بالحاج غير أنّها في حقّه آكد، والأولى تقديم الزيارة على الحج إذا اتّسع الوقت فإنّه ربما يعوقه عنه

---

(١) الكفاية لذوي العناية: ١٢٥ ـ كما في الغدير ٥: ١٢٣.

عائق...[١].

٤٥ ـ قال الشيخ محمد زاهد الكوثري: والأحاديث في زيارته ﷺ في الغاية من الكثرة، وقد جمع طرقها الحافظ صلاح الدين العلائي في جزء، وعلى العمل بموجبها استمرت الأُمة إلى أن شذّ ابن تيمية عن جماعة المسلمين في ذلك، قال علي القاريُ في شرح «الشفاء»: وقد أفرط ابن تيمية من الحنابلة حيث حرم السفر لزيارة النبيّ ﷺ كما أفرط غيره حيث قال: كون الزيارة قربة معلوم من الدين بالضرورة، وجاحده محكوم عليه بالكفر، ولعل الثاني أقرب إلى الصواب لأنّ تحريم ما أجمع العلماء فيه بالاستحباب يكون كفراً لأنّه فوق تحريم المباح المتّفق عليه[٢].

٤٦ ـ قال فقهاء المذاهب الأربعة المصريين في (الفقه على المذاهب الأربعة): زيارة قبر النبي ﷺ أفضل المندوبات، وقد ورد فيها أحاديث. ثم ذكروا أحاديث ستة وجملة من أدب السرائر وزيارة النبي ﷺ وأُخرى للشيخين[٣].

٤٧ ـ قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز إجابة عن الأسئلة حول زيارة المسجد النبوي: الزيارة للمسجد النبوي سنّة وليست واجبة ـ إلى أن قال ـ: وإذا زار المسجد النبوي شرع له أن يصلي في الروضة ركعتين ثم يسلّم على النبي ﷺ وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر (رضي

(١) الإرشادات السنية: ٢٦٠ ـ كما في الغدير ٥: ١٢٣.
(٢) الكوثري، تكملة السيف الصقيل: ١٥٦، ط دمشق.
(٣) الفقه على المذاهب الأربعة ١: ٥٩٠.

الله عنهما)، كما يشرع له زيارة البقيع والشهداء بالسلام على المدفونين هناك من الصحابة وغيرهم، والدعاء لهم والترحّم عليهم، كما كان النبيّ ﷺ يزورهم وكان يعلّم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: السلام عليكم أهل الدار من المؤمنين والمسلمين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية. وفي رواية عنه ﷺ أنّه كان يقول إذا زار البقيع: «يرحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين، اللّهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» ويشرع أيضاً لمن زار المسجد النبوي أن يزور مسجد قباء ويصلّي فيه ركعتين لأنّ النبي ﷺ كان يزوره كل سبت ويصلّي فيه ركعتين إلى آخر ما قال[1].

وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدّل لكلماته
وهو السميع العليم

---

(١) جريدة الجزيرة المؤرخة: يوم الجمعة ٢٤ ذو القعدة ١٤١١، العدد ٦٨٢٦.

٣

زيارة النبيّ الأكرم ﷺ في الكتاب العزيز

أمر القرآن الكريم المسلمين بالحضور عند رسول الله ﷺ ليستغفر لهم الله، لأنّ دعاءه يستجاب فيهم، قال عزّ وجلّ: ﴿ولو أنّهم إذْ ظَلَمُوا أنفسَهُم جاءُوكَ فَاستغفَرُوا اللهَ واَستغفَرَ لَهُمُ الرَّسولُ لَوجَدوا اللهَ تَوّاباً رَحِيماً﴾ (النساء/٦٤).

قال الإمام السبكي: «دلّت الآية على الحث على المجيء إلى الرسول ﷺ والاستغفار عنده واستغفاره لهم، وذلك وإن كان ورد في حال الحياة، فهي رتبة له لا تنقطع بموته تعظيماً له»[١].

ثم إنّه بسط الكلام في دلالة الآية على شمولية المجيء إلى الرسول ﷺ بعد موته، فمن أراد فليراجع إليه، غير أنّا نستدلّ بالآية بوجه آخر ونقول:

---

(١) الإمام السبكي، شفاء السقام: ٨١.

لو كانت هذه الآية هي الوحيدة في هذا المجال، لذهبنا إلى القول بأنّها خاصّة بحياة رسول الله ﷺ ومدة تواجده بين الناس، ولكنّنا نستخلص منها حكماً عامّاً شاملاً لا يختص بالحياة الدنيوية وذلك من خلال ما يلي:

أوّلاً: إنّ القرآن الكريم يصرّح بحياة الأنبياء والأولياء ـ وجماعات أُخرى ـ في البرزخ ويعتبرهم مبصرين وسامعين في ذلك العالم.

ثانياً: إنّ الأحاديث الشريفة تصرّح بأنّ الملائكة تبلغ خاتم الأنبياء ﷺ سلام من يسلّم عليه، فقد جاء في الصحاح:

«إنّ رسول الله ﷺ قال: ما من أحد يسلّم عليَّ إلّا ردّ الله عليَّ روحي حتى أردَّ عليه السلام»[1].

وقال ﷺ: «صلّوا عليّ فإنّ صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم»[2].

ثالثاً: إنّ المسلمين ـ منذ ذلك اليوم ـ فهموا من هذه الآية معنى مطلقاً لا ينتهي بموت رسول الله ﷺ حتى أنّ بعض الأعراب ـ بوحي من أذهانهم الخالصة من كل شائبة ـ كانوا يقصدون قبر رسول الله ﷺ ويزورونه ويتلون هذه الآية عند قبره المطهّر ويطلبون منه الاستغفار لهم.

وقد ذكر تقيّ الدين السبكي في كتاب «شفاء السقام» والسمهودي في كتاب «وفاء الوفا» نماذج من زيارة المسلمين لقبر

(١) سنن أبي داود ١: ٤٧٠ و٤٧١، كتاب الحج، باب زيارة القبور.
(٢) الشيخ منصور علي ناصف، التاج الجامع للأُصول في أحاديث الرسول ٢: ١٨٩.

رسول الله وتلاوة هذه الآية عند قبره الشريف، وفيما يلي نذكر بعض تلك النماذج:

روى سفيان بن عنبر عن العتبي ـ وكلاهما من مشايخ الشافعي وأساتذته ـ أنّه قال: كنت جالساً عند قبر رسول الله ﷺ فجاء أعرابيّ فقال: «السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿ولو أنَّهم إذْ ظَلموا أنفسَهُم جاءُوكَ فَاستغفَرُوا اللهَ واَستغفَرَ لَهُمُ الرَّسولُ لَوجَدوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً﴾ وقد جئتك مستغفراً من ذنبي، مستشفعاً بك إلى ربّي». ثم بكى وأنشأ يقول:

يا خيرَ من دفنت في القاع أعظمه
فطاب من طيبهنّ القاعُ والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه
فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم استغفر وانصرف[١].

ويروي أبو سعيد السمعاني عن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام انّ أعرابياً جاء بعد ثلاثة أيام من دفن رسول الله ﷺ فرمىٰ بنفسه على القبر الشريف وحثا من ترابه على رأسه وقال: «يارسول الله قلتَ فسمعنا قولك، ووعيت عن الله ما وعينا عنك، وكان فيما أنزله عليك: ﴿ولو أنَّهم إذْ ظَلموا أنفسَهُم...﴾ وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي إلى ربّي»[٢].

---

(١) وفاء الوفا ٤ : ١٣٦١ ـ أحمد زيني دحلان، الدرر السنيّة : ٢١.

(٢) ابن حجر، الجوهر المنظم، وذكره السمهودي في وفاء الوفا ٢ : ٦١٢، وزيني دحلان في الدرر السنية : ٢١.

إنّ كل هذا يدل على أنّ المنزلة الرفيعة التي منحها الله تعالى لحبيبه المصطفى ﷺ كما صرّحت بها هذه الآية ليست خاصّة بحياته، بل تؤكّد على أنّها ثابتة له بعد وفاته أيضاً.

وبصورة عامّة... يَعتبر المسلمون كلّ الآيات النازلة في تعظيم رسول الله واحترامه، عامّة لحياته وبعد مماته، وليس هناك من يُخصِّصها بحياته ﷺ.

وقد جاء في التاريخ: لمّا استُشهد الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام وجيء بجثمانه الطاهر إلى مسجد رسول الله ﷺ ظنّ بنو أُمية أنّ بني هاشم يريدون دفن الإمام بجوار قبر جدّه المصطفى فأثاروا الفتنة والضجّة للحيلولة دون ذلك، فتلا الإمام الحسين عليه السلام قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَرفَعُوا أصواتَكُمْ فَوقَ صَوتِ النَّبِيِّ﴾ (الحجرات/٢).

ولم يردَّ عليه أحد ـ حتى من الأمويين ـ بأن هذه الآية خاصة بحياة رسول الله ﷺ.

واليوم نصب المسلمون هذه الآية على الجدار المقابل لقبر رسول الله ﷺ، وهم يقصدون بذلك المنع من رفع الأصوات هناك.

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نستنتج من الآية معنىً واسعاً عامّاً، وهو أنّ للمسلمين اليوم أن يَقِفوا أمام قبر رسول الله ﷺ ويسألوه أن يستغفر الله لهم.

وليس لزيارة رسول الله ﷺ معنى سوى ما تضمّنته هذه الآية وأمثالها، فانها تدلّ على موضوعين هما:

١ ـ إنّ للإنسان أن يقف عند قبر رسول الله ﷺ بعد وفاته ويسأله

أن يستغفر الله له.

٢ ـ إنّ هذه الآية تشهد على جواز زيارة قبر رسول الله ﷺ لأنّ حقيقة الزيارة لا تعني سوى «حضور الزائر عند المزور» فإذا كان الوقوف عند قبر النبي وسؤاله أن يستغفر الله له جائزاً فقد تحقق أمران:

أ ـ سألناه أن يستغفر الله لنا.

ب ـ حضرنا عنده وتحدّثنا إليه، والزيارة ليست إلّا هذا.

٤

زيارة النبيّ الأكرم ﷺ في السنّة النبوية

تضافرت السنّة على استحباب زيارة قبر النبيّ الأكرم ﷺ حيث رواها أئمة المذاهب الأربعة وأصحاب السنن والمسانيد في كتبهم. ولمّا ظهرت بدعة التشكيك في زيارة النبيّ الأكرم قام الإمام تقي الدين السبكي (م/٧٥٤هـ) بجمع ما رواه الحفّاظ في هذا المجال فبلغت خمسة عشر حديثاً، وقد صحّح كثيراً من أسانيدها بما كان له من اطّلاع واسع في مجال رجال الحديث(١).

وممّن قام بنفس العمل الحافظ نور الدين علي بن أحمد السمهودي في كتابه «وفاء الوفا باخبار دار المصطفى» (م/٩١١هـ) حيث أحصىٰ سبعة عشر حديثاً غير ما ورد في ذلك المجال، ولم يشتمل على لفظ «الزيارة»(٢).

---

(١) السبكي، شفاء السقام في زيارة خير الأنام، الباب الأول ٥ ـ ٣٩.

(٢) السمهودي، وفاء الوفا ٤ : ١٣٣٦ ـ ١٣٤٨، الباب الثاني.

وقد قام بنفس ما قام به الإمام السبكي من تصحيحٍ للاسناد وذِكر لمصادر الروايات على وجه بديع.

من جهة أُخرى قام الكاتب الإسلامي الشيخ محمد الفقي، من علماء الأزهر الشريف، بجمع ما ورد في زيارة النبيّ الأكرم ﷺ من غير تحقيق للاسناد بل مجرد النقل فبلغ اثنين وعشرين حديثاً[1].

وبذل المجاهد الكبير الشيخ الأميني جهداً كبيراً في العثور على مظانّ الروايات في كتب الحديث والتفسير والتاريخ، وربما نقل بعض الأحاديث، كالحديث الأول، عن واحد وأربعين مصدراً.

والأحاديث التي سنسردها على صفحات هذه الرسالة من الكثرة ما يغنينا عن التحقيق في أسانيدها ورواتها حيث سجّلها الحفّاظ في كتبهم وصحاحهم، وهي بمجموعها كافية للحكم باستحبابها، ولأجل ذلك سنكتفي بذكر متون الأحاديث مجرّدة عن الاسناد وما دار حول رواتها من كلام للرجاليين، تاركين كل ذلك إلى كتاب شفاء السقام للإمام السبكي وسنذكر بعض المصادر لكل حديث دون الاستيعاب لجميعها.

الحديث الأول:

روى الدار قطني في سننه بسنده إلى ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من زار قبري وجبت له شفاعتي»[2].

ورواه البيهقي أيضاً في سننه[3]، والماوردي: في الأحكام

---

(١) الفقي، التوسل والزيارة في الشريعة الإسلامية: ٤٨ ـ ٥٠.

(٢) الدار قطني، السنن ٢ : ٢٧٨، باب المواقيت، الحديث ١٩٤، ط دار المحاسن، القاهرة.

(٣) البيهقي، السنن ٥: ٢٤٥.

السلطانية[١].

إلى غير ذلك من الحفّاظ الذين نقلوه في كتبهم[٢].

الحديث الثاني: روى الطبراني في المعجم الكبير[٣]، والغزالي في إحياء العلوم[٤]، عن عبد الله بن عمر مرفوعاً عن النبي ﷺ: «من جاءني زائراً لا تَحمِلُه حاجة إلّا زيارتي كان حقّاً عليّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة».

الحديث الثالث: أخرج الدار قطني عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجَّ فزار قبري بعد وفاتي، فكأنّما زارني في حياتي»[٥].

وأخرجه الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه[٦] ورواه الإمام السبكي في شفاء السقام[٧] والسمهودي في وفاء الوفا[٨].

الحديث الرابع: أخرج الدار قطني عن ابن عمر قال: قال رسول

---

(١) أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية: ١٠٥.

(٢) أخرجه العلاّمة الأميني عن واحد وأربعين مصدراً حديثياً وفقهياً ـ اُنظر: الغدير ٥: ٩٣ ـ ٩٦.

(٣) الطبراني، المعجم الكبير.

(٤) الغزالي، إحياء العلوم ١: ٣٠٦، وفيه «لا يهمّه إلّا زيارتي» مكان قوله: «لا تحمله» ـ وقد نقله الإمام السبكي، في شفاء السقام: ١٦ ـ والسمهودي، في وفاء الوفا ٤: ١٣٤٠ ـ ونقله العلاّمة الأميني عن ستة عشر مصدراً حديثياً وفقهياً في الغدير ٥: ٩٧و٩٨.

(٥) الدار قطني، السنن ٧: ٢٧٨، باب المواقيت، الحديث ١٩٢.

(٦) البيهقي، السنن ٥: ٢٤٦.

(٧) السبكي، شفاء السقام: ٢١.

(٨) السمهودي، وفاء الوفا ٤: ١٣٤٠ ـ ورواه العلاّمة الأميني عن خمسة وعشرين مصدراً في الغدير ٥: ٩٨ ـ ١٠٠.

الله ﷺ: «من زارني بعد موتي، فكأنّما زارني في حياتي، ومن مات بأحد الحرمين بُعث من الآمنين يوم القيامة»(١).

الحديث الخامس: أخرج البيهقي في سننه قال:

روى ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من زار قبري (أو من زارني) كنت له شفيعاً (أو شهيداً)»(٢).

الحديث السادس: أخرج الحافظ ابن عدي (م/٣٦٥هـ) في كتابه الكامل عن عبد الله بن عمر أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجّ البيت ولم يزرني فقد جفاني»(٣).

الحديث السابع: روي عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قال: «من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً»(٤).

الحديث الثامن: روى أنس بن مالك أنّه قال رسول الله ﷺ: «من زارني ميتاً فكأنّما زارني حيّاً، ومن زار قبري وجبت له شفاعتي يوم القيامة، وما من أحد من أُمتي له سعة ثم لم يزرني، فليس له عذر»(٥).

---

(١) الدار قطني، السنن ٢ : ٢٧٨، باب المواقيت، الحديث ١٩٣ ـ ورواه الإمام السبكي في شفاء السقام : ٢٣٣ ـ والسمهودي، في وفاء الوفا ٤ : ١٣٤٤ ـ ونقله العلاّمة الأميني في الغدير ٥ : ١٠١، عن ثلاثة عشر مصدراً حديثياً.

(٢) البيهقي، السنن الكبرى ٥ : ٢٤٥ ـ ورواه الإمام السبكي، في شفاء السقام : ٢٩ ـ والسمهودي، في وفاء الوفا ٤ : ١٣٤٢. وقال: أخرجه الدار قطني في السنن.

(٣) الإمام السبكي، شفاء السقام : ٢٧ ـ ونقله السمهودي، في وفاء الوفا ٤ : ١٣٤٢ ـ وقد ذكر اسناد ابن عدي إلى ابن عمر، ونقله العلاّمة الأميني عن مصادر تسعة في الغدير ٥ : ١٠٠.

(٤) رواه الإمام السبكي في شفاء السقام بسنده إلى أنس بن مالك : ٣٥ ـ كما رواه السمهودي في وفاء الوفا عن ابن أبي الدنيا بسنده إلى أنس ٤ : ١٣٤٥ ـ ورواه العلامة الأميني عن واحد وعشرين مصدراً، الغدير ٥ : ١٠٢و١٠٣.

(٥) السبكي، شفاء السقام : ٣٧ ـ وأخرجه السمهودي عن كتاب ابن النجار في أخبار المدينة بسنده عن أنس ٤ : ١٣٤٥ ـ ونقله العلاّمة الأميني عن مصادر ستة في الغدير ٥ : ١٠٤.

الحديث التاسع: روى علقمة عن عبد الله بن عمر ﵁ قال: قال رسول‌الله ﷺ: «من حجّ حجّة الإسلام وزار قبري وغزا غزوة وصلّى عليّ في بيت المقدس لم يسأله الله عزّ وجلّ فيما افترض عليه»[١].

الحديث العاشر: أخرج الفردوس في مسنده عن ابن عباس أنّه قال رسول الله ﷺ: «من حجّ إلى مكّة ثم قصدني في مسجدي كُتِبَت له حجّتان مبرورتان»[٢].

* * *

واكتفينا بهذا العدد من الروايات ومن أراد التفصيل فعليه الرجوع إلى المصادر، وبما أنّ الشيخ محمد الفقي قد جمع متون الروايات بشكل موجز نذكر ما جمعه وإن مضى ذكر قسم منها:

تجريد المتون عن الأسانيد

ويستحبّ زيارة قبر النبيّ ﷺ لما روى الدار قطني باسناده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجّ فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي» وفي رواية: «من زار قبري وجبت له شفاعتي» رواه باللفظ الأوّل سعيد، ثنا حفص بن سليمان، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عمر. وقال أحمد في رواية عبد الله بن يزيد بن قسيط عن أبي هريرة: إنّ النبي ﷺ قال: «ما من أحد يسلّم عليّ عند قبري إلّا ردّ اللهُ عليّ روحي

---

(١) السبكي، شفاء السقام: ٣٠٣، عن كتاب الفوائد لأبي الفتح الأزدي ـ وأخرجه السمهودي، في وفاء الوفا ٤: ١٣٤٤ ـ والعلامة الأميني في غديره ٥: ١٠٢ عن مصادر خمسة.

(٢) السمهودي، وفاء الوفا ٤: ١٣٤٧ ـ ورواه الشوكاني في نيل الأوطار ٤: ٣٢٦.

حتى أرد عليه السلام» رواه أبو داود بدون زيادة «عند قبري».

فإقراره للزيارة وتقريره لها اعتراف بالغ الأهمية باستحبابها وروعة الترغيب فيها، وانتصار للحقّ ووقوف بجانبه، ولا يمكن أن يوصف ذلك الإمام بالتحيّز، ولاينبغي أن يرمى بضعف التقدير، إذ إنّ إقراره ذلك يتّفق تماماً مع هدى الدين والرسائل السماوية والأحاديث النبوية المتعددة الطرق المختلفة الأسانيد، والتي ندعها وحدها تتكلم عن مدى تقدير الزيارة وعظم اهتمام الشارع بها، وما تتجلّى عنه من مزايا واسعة الآفاق كبيرة النوال:

١ ـ عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من زار قبري وجبت له شفاعتي» رواه ابن خزيمة في صحيحه.

٢ ـ وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني في قبري حلّت له شفاعتي يوم القيامة» رواه ابن أبي الدنيا.

٣ ـ وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من زار قبري حلّت له شفاعتي يوم القيامة» رواه الدار قطني.

٤ ـ وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني في مماتي كان كمن زارني في حياتي» رواه العقيلي.

٥ ـ وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني بالمدينة بعد موتي كنت له شفيعاً يوم القيامة» رواه أبو داود الطيالسي.

٦ ـ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني بعد موتي فكأنما زارني وأنا حيّ» رواه الحافظ سعيد بن محمد.

٧ ـ وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني حتى

ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيداً أو شفيعاً» رواه العقيلي.

٨ ـ وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاءني زائراً لا تعلم له حاجة إلّا زيارتي كان حقّاً عليّ أن أكون له شفيعاً» رواه الدارقطني.

٩ ـ وعن بكر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتى المدينة زائراً إليّ وجبت له شفاعتي يوم القيامة» رواه يحيى بن حسين.

١٠ ـ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة» رواه ابن مردويه.

١١ ـ وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة» رواه أبو عوانة.

١٢ ـ وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني بعد وفاتي فكأنّما زارني في حياتي» رواه ابن عدي.

١٣ ـ وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من زار قبري وجبت له شفاعتي» رواه ابن النجار.

١٤ ـ وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاءني زائراً لا تعمده حاجة إلّا زيارتي كان حقّاً عليّ أن أكون له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة» رواه الطبراني.

١٥ ـ وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «من حجّ إلى مكّة ثم قصدني في مسجدي كُتِبَت له حجّتان مبرورتان» رواه الديلمي في مسند الفردوس.

١٦ ـ وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاءني زائراً لا يهمّه إلّا زيارتي كان حقّاً على الله أن أكون له شفيعاً يوم القيامة» رواه

الطبراني وصحّحه ابن السكن.

١٧ ـ وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد من أُمّتي له سعة ثم لم يزرني فليس له عذر» رواه ابن النجار.

١٨ ـ وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجد سعة ولم يفد إليّ فقد جفاني» رواه ابن حبّان.

١٩ ـ وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عذر لمن كان له سعة من أُمتي أن لا يزورني» رواه ابن عساكر.

٢٠ ـ وعن ابن عمر: «من حج وزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي» رواه سعيد بن منصور.

٢١ ـ وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجّ ولم يزر قبري فقد جفاني» رواه ابن عساكر.

٢٢ ـ وعن ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني» رواه ابن عدي بسند حسن(١).

زيارة النبيّ الأكرم في حديث العترة

تضافر الحديث عن العترة الطاهرة حول زيارة قبر النبيّ الأكرم ﷺ نقتبس منه ما يلي:

١ ـ روى الحميري (م/٢٩٩هـ) عن هارون، عن ابن صدقة عن الصادق عن أبيه الباقر عليه السلام أنّ النبي ﷺ قال: «من زارني حيّاً وميّتاً، كنت

---

(١) محمد الفقي، التوسل والزيارة في الشريعة الإسلامية: ٤٨و٤٩.

له شفيعاً يوم القيامة»[١].

٢ ـ روى الصدوق (م/٣٠٦ـ٣٨١هـ) بسنده عن الإمام عليّ (صلوات الله عليه): «أتمّوا برسول الله حجّكم، إذا خرجتم إلى بيت الله، فإنّ تركه جفاء وبذلك أُمرتم، وأتمّوا بالقبور التي ألزمكم الله زيارتها وحقّها»[٢].

٣ ـ روى الصدوق بسنده عن الامام الرضا عليه السلام أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «من زارني في حياتي وبعد موتي فقد زار الله تعالى...»[٣].

٤ ـ روى الصدوق عن إبراهيم بن أبي حجر الأسلمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أتى مكّة حاجّاً ولم يزرني إلى المدينة جفوته يوم القيامة، ومن جاءني زائراً وجبت له شفاعتي، ومن وجبت له شفاعتي وجبت له الجنة»[٤].

٥ ـ روى ابن قولويه (م/٣٦٩هـ) عن أبي حجر الأسلمي قال: قال رسول الله (وذكر مثل ماسبق وزاد في آخره) «ومن مات في أحد الحرمين ـ مكّة أو المدينة ـ لم يعرض إلى الحساب ومات مهاجراً إلى الله وحشر يوم القيامة مع أصحاب بدر»[٥]

٦ ـ روى الصدوق بسنده عن المعلى بن شهاب عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال الحسن بن عليّ عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا أبتاه ما جزاء

---

(١) الحميري، قرب الاسناد: ٣١ ـ والمجلسي، البحار ٩٧: ١٣٩.
(٢) الصدوق، الخصال ٢: ٤٠٦ ـ المجلسي، البحار ٩٧: ١٣٩.
(٣) الصدوق، عيون أخبار الرضا ١: ١١٥ ـ المجلسي، البحار ٩٧: ١٤٠.
(٤) الصدوق، علل الشرائع: ٤٦٠ ـ المجلسي، البحار ٩٧: ١٤٠.
(٥) ابن قولويه، كامل الزيارات: ٤٦٠ ـ المجلسي، البحار ٩٧: ١٤٠.

من زارك؟ فقال رسول الله ﷺ: يابني: من زارني حياً أو ميّتاً أو زار أباك أو أخاك أو زارك كان حقّاً عليَّ أن أزوره يوم القيامة فأُخلِّصه من ذنوبه[1].

٧ ـ روى ابن قولويه بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: من أتاني زائراً كنت شفيعه يوم القيامة»[2].

٨ ـ روى ابن قولويه عن ابن أبي نجران قال: قلت لأبي جعفر الثاني (الإمام الجواد عليه السلام): جعلت فداك، ما لمن زار رسول الله ﷺ متعمّداً؟ قال: «له الجنّة»[3].

٩ ـ روى ابن قولويه باسناده عن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن عليّ بن أبي طالب قال: «قال رسول الله ﷺ: من زارني بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي وكنت له شهيداً أو شافعاً يوم القيامة»[4].

١٠ ـ روى ابن قولويه بسنده عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: من زار قبري بعد موتي كان كمن هاجر إليَّ في حياتي، فإن لم تستطيعوا فابعثوا إليَّ بالسلام فإنّه يبلغني»[5].

نكتفي بهذا القدر من الروايات، وبهذا يتضح اتفاق الفريقين على استحباب زيارة قبر النبيّ الأكرم ﷺ، وقد بلغ الاتفاق إلى حدّ نرى وحدة المضمون بل التعبير في رواياتهم، وهناك روايات أُخرى عن العترة الطاهرة لم نذكرها روماً للاختصار.

---

(١) الصدوق، علل الشرائع: ٤٦٠ ـ المجلسي، البحار ٩٧: ١٤٠.

(٢) ابن قولويه، كامل الزيارات: ١٢ ـ المجلسي، البحار ٩٧: ١٤٢.

(٣) المصدر نفسه، وفي البحار: ١٤٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٣، والمصدر الثاني نفسه.

(٥) المصدر نفسه: ١٤، والمصدر الثاني: ١٤٤.

ومن تجرّد عن الرأي المسبق أو التشكيك الذي أثاره بعض الناس، ونظر إلى كلمات أعلام المذاهب وروايات الفريقين يحصل له القطع واليقين على أنّ استحباب زيارته ﷺ من الأُمور الواضحة في الشريعة الإسلامية الغرّاء، وأنّ التشكيك فيها تشكيك في الأُمور المسلّمة والمتّفق عليها.

٥

شدّ الرحال إلى زيارة النبيّ الأكرم ﷺ

إذا كانت زيارة النبيّ الأكرم أمراً مطلوباً وعملاً مستحبّاً كما دلّت عليه الروايات المتضافرة والسيرة القطعية يكون شدّ الرحال، الذي هو بمنزلة المقدمة أمراً مستحبّاً، بناءً على الملازمة بين استحباب الشيء واستحباب مقدمته، كما عليه أكثر الأُصوليين، وهذا له نظائر في الشريعة الإسلامية، تحكي أنّ وسيلة القربة، قربة قال سبحانه: ﴿ومَنْ يَخْرُج مِنْ بَيتِه مُهاجراً إلى اللهِ ورَسُولِه ثُمَّ يُدرِكْهُ المَوتُ فَقَدْ وَقعَ أجرُهُ عَلى اللهِ﴾ (النساء/١٠٠) فهذا الإنسان مأجور بخروجه هذا وإن كان مقدمة لأمر مطلوب آخر.

يقول سبحانه في حقّ المجاهدين: ﴿ذلكَ بأنّهم لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ فِي سَبيلِ اللهِ ولا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفّارَ ولا يَنالُونَ مِن عَدُوٍّ نَيلاً إلاّ كُتِبَ لَهُم بهِ عَملٌ صالِحٌ إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ

المُحْسِنِينَ * ولا يُنفِقُونَ نَفقةً صَغيرةً ولا كَبيرةً ولا يَقطعُونَ وادِياً إلّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجزِيَهُمُ اللهُ أحسنَ ما كانوا يَعملونَ﴾ (التوبة/١٢٠ـ١٢١).

وهذه الأُمور التي كتب الله لهم بها أجراً، وسيلة الجهاد، ومقدمة للقتال، وهذا يكشف عن التلازم بين الاستحبابين، أو الثوابين.

نعم، ذهب بعض الأُصوليين إلى عدم الملازمة ولكنّهم متّفقون على لزوم كون المقدمة مباحة لا محرّمة، لاستلزامه التناقض في التشريع، حيث لا يعقل البعث إلى أمر، مع المنع عمّا يوصل المكلف إليه، وعلى كل تقدير لا يصحّ تحريم السفر مع افتراض كون الزيارة أمراً راجحاً، وفعلاً مستحبّاً فلا محيص إلّا بالقول باستحبابه، أو إباحته. ولا تجتمع حرمة المقدمة مع استحباب ذيها.

نعم، هنا فرق بين زيارة قبر النبيّ، وزيارة قبور المسلمين، فإنّ الأوّل مستحبّ بالخصوص، بخلاف الآخرين فإنّها مسنونة على وجه العموم فلو زار إنسان قبر أبيه أو أخيه، فإنّما يزورهما بما أنّ زيارتهما داخلة تحت عموم قوله ﷺ: «فزوروا القبور، فإنّ زيارتها تذكّركم الآخرة»، وهذا بخلاف زيارة الرسول فإنّها ـ مضافاً إلى أنّها داخلة تحت العموم ـ مستحبة في نفسها.

وقد جرت سيرة المسلمين من عصر الصحابة إلى يومنا هذا على شدِّ الرحال إلىٰ زيارة النبيّ الأكرم وعدّوا زيارتها قربة، والسفر إليها مثلها، ولم ينكر أحد قربية الزيارة ولا جواز السفر إلّا ابن تيمية في أوائل القرن الثامن لشبهة طرأت له، وسنتعرض لها في فصل مستقل.

ولأجل إيقاف القارئ على اتصال السيرة إلى عصر الصحابة نذكر

بعض مايدلّ عليه:

١ ـ روى ابن عساكر بإسناده عن أبي الدرداء قال: لمّا فرغ عمر بن الخطاب ﷺ عن فتح بيت المقدس فصار إلى الجابية سأله بلال أن يقرَّه بالشام ففعل ذلك ـ إلى أن قال ـ ثم إنّ بلالاً رأى في منامه رسول الله وهو يقول: ما هذه الجفوة يا بلال أما آن لك أن تزورني يا بلال، فانتبه حزيناً وجلاً خائفاً فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه فأقبل الحسن والحسينَ (رضي الله عنهما) فجعل يضُمّهما ويقبّلهما فقالا له: نشتهي أذانَك الذي كنت تؤذِّن به لرسول الله ﷺ في المسجد ففعل، فعلا سطح المسجد فوقف موقفه الذي كان يقف فيه فلمّا أن قال: الله أكبر، الله أكبر، ارتجّت المدينة، فلمّا أن قال: أشهد أن لا إلـه إلّا الله، إزدادت رجّتها، فلمّا أن قال: أشهد أنّ محمداً رسول الله، خرجت العواتق من خدورهنّ وقالوا: بُعِثَ رسول الله. فما رؤي يوم أكبر باكياً ولا باكية بالمدينة بعد رسول الله من ذلك اليوم(١).

٢ ـ استفاض عن عمر بن عبد العزيز ﷺ أنّه كان يُبرِد البريد من الشام إلى المدينة يقول: سلِّم لي على رسول الله، روى ابن الجوزي: «وكان عمر بن عبد العزيز يبعث بالرسول قاصداً من الشام إلى المدينة ليقرئ النبيّ ثم يرجع»(٢).

---

(١) ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق ٥ : ٢٦٥ ـ الحافظ جمال الدين المزّي، تهذيب الكمال ٤ : ٢٨٩.

(٢) ابن الجوزي، مثير الغرام الساكن.

وربّما كان يجتمع مع قصد الزيارة قصد أمر آخر. فكان يُشَدّ لغايتين.

٣ـروىٰ يزيد بن أبي سعيد، مولى المهري قال: قدمت على عمر بن عبد العزيز فلمّا ودّعته قال: إليك حاجة إذا أتيت المدينة سترى قبر النبيّ فاقرأه منّي السلام[١].

٤ ـروىٰ أبو الليث السمرقندي الحنفي في الفتاوي في باب الحج: قال أبو القاسم: لمّا أردت الخروج إلى مكّة قال القاسم بن غسان: إنّ لي إليك حاجة، إذا أتيت قبر النبي فاقرأه منّي السلام، فلمّا وضعت رحلي في مسجد المدينة ذكرت.

قال الفقيه: فيه دليل إن لم يقدر على الخروج يأمر غيره ليسلّم عنه فإنّه ينال فضيلة السلام[٢].

٥ ـروى الواقدي في فتوح الشام: كان أبو عبيدة منازلاً بيت المقدس فأرسل كتاباً إلى عمر مع ميسرة بن مسروق ﷺ يستدعيه الحضور، فلما قدم ميسرة مدينة رسول الله دخلها ليلاً ودخل المسجد وسلّم على قبر رسول الله وعلى قبر أبي بكر ﷺ ... ثم إنّ عمر لمّا صالح أهل بيت المقدس وقدم عليه كعب الأحبار وأسلم وفرح عمر بإسلامه قال عمر ﷺ له: هل لك أن تسير معي إلى المدينة وتزور قبر النبي وتتمتع بزيارته، فقال لعمر يا أمير المؤمنين أنا أفعل ذلك، ولما قدم عمر

---

(١) الإمام السبكي، شفاء السقام: ٥٦.

(٢) المصدر نفسه.

المدينة، أول ما بدأ بالمسجد وسلم على رسول الله[١].

٦ ـ قال ابن بطة العكبري الحنبلي (م/٣٨٧هـ) في كتاب الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية: «إنّ كل عالم من علماء المسلمين وفقيه من فقهائهم ألّف كتاباً في المناسك ففصّله فصولاً وجعله أبواباً، يذكر في كل باب فقهه، ولكل فصل عمله وما يحتاج إليه الحاج إلى عمله والعمل به قولاً وفعلاً من الإحرام والطواف والسعي والوقوف، والنحر، والحلق، والرمي، وجميع ما لا يسع الحاج جهله، ولا غنى بهم عن عمله، حتى زيارة قبر النبي فيصف ذلك فيقول: تأتي القبر فتستقبله وتجعل القبلة وراء ظهرك وتقول: السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته، حتى تصف السلام والدعاء ثم يقول: وتتقدم على يمينك وتقول السلام عليك يا أبا بكر وعمر. ـ إلى أن قال ـ: ولقد أدركنا الناس ورأيناهم وبلغنا عمّن لم نره أنّ الرجل إذا أراد الحج فسلم عليه أهله وصحابته قالوا: وتقرأ على النبي وأبي بكر وعمر منّا السلام فلا ينكر ذلك أحد ولا يخالفه[٢].

إطباق السلف والخلف على جواز السفر

جرت سيرة المسلمين على زيارة الرّسول ـ عند الوفود إلى الحج ـ بالمرور بالمدينة أو رجوعاً من مكة إليها، و هذا أمر ملموس وظاهر مشهود من الوافدين من كل فجّ عميق، وعلى ذلك جرت السيرة

(١) الواقدي، فتوح الشام ١ : ٢٤٤، طبعة دار الجيل، بيروت.

(٢) أبو عبد الله ابن بطة، في الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ـ كما في شفاء السقام : ٦٠.

في جميع القرون، فلا يمكن لأحد إنكارها، بل هي كاشفة عن استحبابها عند الشرع، وهذا هو الإمام السبكي يذكر سيرة المسلمين في أيام الحج ويقول: إنّ الناس لم يزالوا في كلّ عام إذا قضوا الحجَّ يتوجّهون إلى زيارته ﷺ ومنهم من يفعل ذلك قبل الحج، هكذا شاهدناه وشاهده من قبلنا، وحكاه العلماء عن الأعصار القديمة، وذلك أمر لا يرتاب فيه، وكلّهم يقصدون ذلك ويعرجون إليه، وإن لم يكن في طريقهم، ويقطعون فيه مسافة بعيدة وينفقون فيه الأموال، ويبذلون فيه المهج، معتقدين أنّ ذلك قربة وطاعة. وإطباق هذا الجمع العظيم من مشارق الأرض ومغاربها على ممرّ السنين وفيهم العلماء والصلحاء، وغيرهم يستحيل أن يكون خطأً، وكلهم يفعلون ذلك على وجه التقرّب به إلى الله عزّ وجلّ، ومن تأخّر عنه من المسلمين فإنّما يتأخّر بعجز أو تعويق المقادير، مع تأسّفه ووده لو تيسّر له، ومن ادّعى أنّ هذا الجمع العظيم مجمعون على خطأ فهو المخطئ.

ومن نازع في ذلك وقال فانّهم يقصدون من سفرهم زيارة المسجد، لا زيارة الرسول الأكرم، فلم ينصف وكابر في أمر بديهي فإنّ الناس من حين يعرجون إلى طريق المدينة، لا يخطر ببالهم غير الزيارة من القربات إلّا قليلاً منهم، وغرضهم الأعظم هو الزيارة ولو لم يكن ربّما لم يسافروا، ولهذا قلّ القاصدون إلى بيت المقدس مع تيسّر إتيانه وليس الصلاة فيه بأقل ثواباً من الصلاة في مسجد النبيّ[1].

---

(١) الامام السبكي، شفاء السقام: ١٠٠و١٠١.

حديث عدم شدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة

لقد تجلّى جواز السفر إلى زيارة النبيّ الأكرم ولم يبق في المقام سوى ما رواه أبو هريرة عن رسول الله من عدم شدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة، وهو المستمسك الوحيد اليوم لمن يحرّم السفر، وإليك توضيحه:

إنّ الرواية نقلت بصور مختلفة، والمناسب لما يرومه المستدلّ الصورة التالية:

«لا تشدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، ومسجد الحرام ومسجد الأقصى».

فتحليل الحديث يتوقّف على تعيين المستثنى منه وهو لا يخلو من صورتين:

١ ـ لا تُشدّ الرحال إلى مسجد من المساجد إلّا إلى ثلاثة مساجد...

٢ ـ لا تُشدّ الرحال إلى مكان من الأمكنة إلّا إلى ثلاثة مساجد...

فلو كانت الأُولى كما هو الظاهر، كان معنى الحديث النهي عن شدّ الرحال إلى أي مسجد من المساجد سوى المساجد الثلاثة، ولا يعني عدم جواز شدّ الرحال إلى أيّ مكان من الأمكنة إذا لم يكن المقصود مسجداً، فالحديث يكون غير متعرض لشدّ الرحال لزيارة الأنبياء والأئمة الطاهرين والصالحين، لأنّ موضوع الحديث إثباتاً ونفياً هو المساجد، وأمّا غير ذلك فليس داخلاً فيه، فالاستدلال به على تحريم شد الرحال إلى غير المساجد، باطل.

وأمّا الصورة الثانية: فلا يمكن الأخذ بها إذ يلزمها كون جميع السفرات محرّمة سواء كان السفر لأجل زيارة المسجد أو غيره من

الأمكنة، وهذا لا يلتزم به أحد من الفقهاء.

ثم إنّ النهي عن شدّ الرحال إلى أيّ مسجد غير المساجد الثلاثة ليس نهياً تحريمياً، وإنّما هو إرشاد إلى عدم الجدوى في سفر كهذا، وذلك لأنّ المساجد الأُخرى لاتختلف من حيث الفضيلة، فالمساجد الجامعة كلّها متساوية في الفضيلة، فمن العبث ترك الصلاة في جامع هذا البلد والسفر إلى جامع بلد آخر مع أنّهما متماثلان.

وفي هذا الصدد يقول الغزالي: «القسم الثاني، وهو أن يسافر لأجل العبادة إمّا لحجٍ أو جهاد... ويدخل في جملته زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكلّ من يُتبرَّك بمشاهدته في حياته يُتبرّك بزيارته بعد وفاته، ويجوز شدّ الرحال لهذا الغرض، ولا يمنع من هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تشدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، ومسجد الحرام ومسجد الأقصى»، لأنّ ذلك في المساجد، فانّها متماثلة (في الفضيلة) بعد هذه المساجد، وإلّا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل، وإن كان يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله[1].

يقول الدكتور عبد الملك السعدي: إنّ النهي عن شد الرحال إلى المساجد الأخرى لأجل أنّ فيه إتعاب النفس دون جدوى أو زيادة ثواب، لأنّه في الثواب سواء، بخلاف الثلاثة لأنّ العبادة في المسجد

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين ٢ : ٢٤٧، كتاب آداب السفر، ط دار المعرفة، بيروت.

الحرام بمائة ألف، وفي المسجد النبوي بألف، وفي المسجد الأقصى بخمسمائة فزيادة الثواب تُحبِّب السفر إليها وهي غير موجودة في بقية المساجد[١].

والدليل على أنّ السفر لغير هذه المساجد ليس أمراً محرّماً، ما رواه أصحاب الصحاح والسنن: «كان رسول الله يأتي مسجد قبا راكباً وماشياً فيصلي فيه ركعتين»[٢].

ولعلّ استمرار النبي على هذا العمل كان مقترناً لمصلحة تدفعه إلى السفر إلى قبا والصلاة فيه مع كون الصلاة فيه أقلّ ثواباً من الثواب في مسجده.

دراسة كلمة ابن تيمية في النهي عن شدّ الرحال

إنّ لابن تيمية في المقام كلمة فيها مغالطة واضحة، إذ مع أنّه قدّر المستثنى منه لفظ المساجد، إلّا أنّه استدلّ على منع شدّ الرحال لزيارة قبور الأنبياء والصالحين بمدلوله أي القياس الأولوي، فقال في الفتاوى:

«فإذا كان السفر إلى بيوت الله غير الثلاثة ليس بمشروع باتفاق الأئمة الأربعة بل قد نهى عنه الرسول ﷺ فكيف بالسفر إلى بيوت المخلوقين الذين تتّخذ قبورهم مساجد وأوثاناً وأعياداً ويشرك بها وتدعى من دون الله، حتى أنّ كثيراً من معظّميها يفضّل الحجّ إليها على

---

(١) الدكتور عبد الملك السعدي، البدعة: ٦٠.

(٢) مسلم، الصحيح ٤: ١٢٧ ـ البخاري، الصحيح ٢: ٧٦ ـ النسائي، السنن ٢: ١٣٧، المطبوع مع شرح السيوطي.

الحج إلى بيت الله»[١].

ولو صحّ ذلك النقل عن ابن تيمية ففي كلامه أوهام شتى إليك بيانها:

١ ـ قال: «إذا كان السفر إلى بيوت الله غير الثلاثة ليس بمشروع».

يلاحظ عليه: من أين وقف على أنّ السفر إلى غير المساجد الثلاثة محرّم؟! وقد عرفت أنّ النهي ليس تحريمياً مولوياً وإنّما هو إرشاد إلى عدم الجدوى، ولأجل ذلك لو ترتّبت على السفر مصلحة لجاز كما عرفت في سفر النبيّ إلى مسجد قبا مراراً.

٢ ـ نسب عدم المشروعية إلى الأئمة الأربعة، إلّا أنّنا لم نجد نصّاً منهم على التحريم، ووجود الحديث في الصحاح لا يدلّ على انّهم فسّروا الحديث بنفس ما فسّر به ابن تيمية.

ولا يخفى على الأئمة ظهور الحديث في الدلالة على عدم الجدوى، لا كون العمل محرّماً.

٣ ـ أنّ عدم جواز السفر إلى غير المساجد الثلاثة لا يكون دليلاً على عدم جوازه إلى ﴿**بُيوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرفَعَ ويُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ**﴾ (النور/٣٦) إذ لا ملازمة بينهما، لأنّه لا تترتب على السفر في غير مورد الثلاثة أية فائدة سوى تحمّل عناء السفر، وقد عرفت أنّ فضيلة أي جامع في بلد، نفسها في البلد الآخر، وليس اكتساب الثواب متوقّفاً على السفر، وهذا بخلاف المقام فإنّ درك فضيلة قبر النبيّ يتوقف على السفر، ولا يدرك

---

(١) ابن تيمية، الفتاوى ـ كما في كتاب البدعة للدكتور عبد الملك السعدي.

بدونه.

٤ ـ يقول: «إنّ المسلمين يتّخذون قبور الأنبياء أوثاناً وأعياداً ويشرك بها» ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أفْواهِهِمْ﴾ أفمن يشهد كلّ يوم بأنّ محمداً عبده ورسوله ويكرمه ويعظّمه لأنّه سفير التوحيد ومبلّغه ـ أفهل ـ يمكن أن يتّخذ قبره وثناً؟!

٥ ـ يقول: «تدعى من دون الله» إنّ عبادة الغير حرام لا مطلق دعوته، فعامة المسلمين حتى ابن تيمية يقولون في صلاتهم: «السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته». والمراد من قوله سبحانه: ﴿ولا تَدْعوا معَ اللهِ أحداً﴾ (الجن/١٨) لا تعبدوا مع الله أحداً. قال سبحانه: ﴿ادْعُوني أسْتَجِبْ لَكُم إنَّ الَّذينَ يَستَكْبِرونَ عَنْ عبادَتي سَيَدْخُلونَ جَهَنَّمَ داخِرينَ﴾ (غافر/٦٠) فسمّى سبحانه دعوته: عبادة. فإذاً الدعوة على قسمين: دعوة عبادية إذا كان معتقداً بإلوهية المدعوّ بنحو من الأنحاء، ودعوة غير عبادية، إذا دعاه على أنّه عبد من عباده الصالحين، يستجاب دعاؤه عند الله، والدعوة بهذا النوع تؤكّد التوحيد.

٦ ـ نَقَل: «إنّ بعض المسلمين يفضّل السفر إلى تلك الأماكن على الحجّ إلى بيت الله» لكنّها فرية بلا مرية، وليس على وجه البسيطة مسلم واع يعتقد بهذا ويعمل عليه.

٧ ـ لو كان السفر إلى القبور أمراً محرّماً فلماذا شدّ النبيّ الرحال لزيارة قبر أُمّه بالأبواء وهي منطقة بين مكّة والمدينة، أفصار النبيّ ـ والعياذ بالله ـ مشركاً أو أنّ الرواية التي أطبق المحدّثون على نقلها مكذوبة، والله لا هذا ولا ذاك وإنّما...

٨ ـ إنّ ما ذكره من أسباب المنع تتحقق للمجاور للقبر بدون شدّ الرحال، فاللازم منع ارتكاب المحرّمات عند قبره لا منع السفر إليه.

٩ ـ احتمال أنّ المراد من زيارة القبور (زوروا القبور) هو زيارة جميع القبور بدون تخصيص لزيارة قبر مشخّص، احتمال ساقط وذلك لأنّ «ال» (الجنسية) إذا دخلت على الجمع أبطلت جمعيته وصار المراد بالمدخول أيّ فرد يتحقق به جنس القبر ويستوي في ذلك المفرد والجمع.

١٠ ـ كيف يقال ذلك مع أنّ السيدة عائشة (رض) كانت تزور قبر أخيها عبد الرحمن بخصوصه[1] حتى أنّ النبيّ يخصّ بعض القبور بالزيارة وقد وضع حجرات على قبر أخيه من الرضاعة عثمان بن مظعون وقال: «لتعرف بها قبر أخي» ولا تترتب على التعرّف فائدة سوى زيارته.

---

(١) ابن قدامة، المغني ٢: ٢٧٠.

٦

شبهات حول زيارة الرسول الأكرم ﷺ

استفاضت السنّة النبوية ـ كما مر ـ على استحباب زيارة الرسول، ودلّت السـيرة القطعية طوال القرون، المنتهية إلى عصر الصحابة والتابعين، على أنّها من السنن المطلوبة، وأنّ شدّ الرحال إليها، كشدّ الرحال إلى سائر الأُمور المسنونة، وأكّد أعلام المذاهب على كونها أمراً قُرْبياً، لذا فالتشكيك في جواز زيارة الرسول أشبه بالتشكيك في أمر بديهي، ولا غرو في التشكيك فيها، فقد شكك عدّة من فلاسفة الاغريق في أبده الأُمور وأوضحها، حتى شكّوا في كل شيء، بما في ذلك ذواتهم وأنفسِهم، وتفكيرهم وتعقّلهم، حتى في حرارة النار وبرودة الماء، ولولا قيام الحكماء الإلهيين كسقراط، وبعده أفلاطون وأرسطو، في وجوه هؤلاء المنسلخين عن الإنسانية لعمّت الداء العمياء وجه البسيطة.

وما نذكره في المقام من الشبه والتشكيكات لم يذكره ابن تيمية في كتبه وإنّما نقلها الإمام السبكي عن خطه، ويجتّرها أتباعه من دون وعي، وإليك بيانها وتحليلها.

الشبهة الأُولى: في تقسيم الزيارة إلى شرعية وبدعية

إنّ زيارة القبور على قسمين: زيارة شرعية، وزيارة بدعية.

فالزيارة الشرعية يقصد بها السلام على الميّت والدعاء له إن كان مؤمناً، وتذكّر الموت سواء أكان الميت مؤمناً أم كافراً. والزيارة لقبر المؤمن نبياً كان أو غير نبيّ من جنس الصلاة على جنازته، يدعىٰ له، كما يدعى إذا صُلّي على جنازته.

وأمّا الزيارة البدعية فمن جنس زيارة النصارى مقصودها الإشراك بالميت، مثل طلب الحوائج منه أو به أو التمسّح بقبره أو تقبيله أو السجود له ونحو ذلك. فهذا كلّه لم يأمر الله به ورسوله ولا استحبّه أحد من المسلمين، ولا كان أحد من السلف يفعله، لا عند قبر النبي ولا غيره، ولا يسألون ميتاً ولا غائباً سواء كان نبياً أو غير نبي بل كان فضلاؤهم لا يسألون غير الله شيئاً[١].

يلاحظ عليه: بأمرين:

١ ـ حصر الزيارة في قسمين مع أنّها ذات أقسام كما سنذكر.

٢ ـ إدخال الأمور الجانبية، كالاستغاثة والسؤال به أو منه في ماهية

---

(١) الإمام السبكي، شفاء السقام: ١٢٤ـ١٢٥، نقلاً عن خط ابن تيمية.

الزيارة مع أنّها ليست منها، فصار هذا وذاك ذريعة لتبلور الشبهة لديه ولدى أتباعه. وها نحن نذكر معنى الزيارة وأقسامها ليتبيّن أنّ القسم الأخير الذي يقصد فيها الإشراك لا يمتّ لزيارة المسلمين بصلة قبور أكابر الدين ولعلّ الغاية من ذكره دعم الشبهة في أذهان البسطاء.

فالزيارة في اللّغة هو العدول عن جانب والميل إلى جانب آخر، قال ابن فارس: «الزور» أصل واحد يدل على الميل والعدول، ومن هذا الباب الزائر لأنّه إذا زارك فقد عدل عن غيرك[1].

ويظهر من غيره أنّه «بمعنى القصد» وهو لا يخالف ما سبق، لأنّ الميل إلى جانب لا ينفك عن القصد، قال الطريحي: زاره يزوره زيارة: قصده فهو زائر، وفي الحديث من زار أخاه في جانب المصر، أي قصد، وفي الدعاء: اللّهمّ اجعلني من زوّارك إني من القاصدين لك، الملتجئين إليك. والزيارة قصد المزور إكراماً له وتعظيماً واستئناساً به[2].

والظاهر كما يظهر من ذيل كلامه أنّ معناها ليس مجرّد القصد بل القصد المنتهي إلى حضور الزائر لدى المزور لإحدى الغايات المذكورة في كلامه، من التكريم والتعظيم والاستئناس به.

هذا هو معنى الزيارة وليس فيها شيء من الأُمور التي ذكرها ابن تيمية بل هي الحضور عن قصد لدى المزور لإحدى الغايات، وهي تختلف حسب اختلاف المزور شأناً، ومقاماً، ومهنة.

نعم في إمكان الزائر أن يزور الرسول لإحدى الغايات التالية:

---

(١) ابن فارس، مقاييس اللغة ٣ : ٣٦.

(٢) الطريحي، مجمع البحرين ١ : ٣٠٥.

١ ـ أن يزور الرسول ﷺ لمجرّد تذكّر الموت والآخرة، وهذا ثابت في زيارة جميع القبور من غير فرق بين الرسول وغيره بل المؤمن والكافر، ودلالة القبور على ذلك متساوية، كما أنّ المساجد ـ غير المساجد الثلاثة ـ متساوية لا يتعيّن شيء منها بالتعيين بالنسبة إلى هذا الغرض، ولا معنى لشدّ الرحال إلى المدينة لزيارة الرسول لتلك الغاية المتحققة في زيارة كلّ قبر في بلد الزائر النائي.

٢ ـ أن يزور الرسول ﷺ للدعاء له، كما زار الرسول أهل البقيع، وهذا مستحبٌّ في حقّ كلّ ميت من المسلمين، ويتحققّ في زيارته ﷺ إذا صلّى عليه، وطلب الدرجة الرفيعة له، كما ورد في الحديث: كان عليّ عليه السلام يقول: اللّهمّ أعل على بناء البانين بناءه، وأكرم لديك نُزُلَه، وشرِّف عندك منزله، وآته الوسيلة، وأعطه السناء والفضيلة، واحشرنا في زمرته[1].

٣ ـ أن يزوره ﷺ للتبرّك به لأنّه ليس في الخلف أعظم بركة منه وهو حيّ يرزق، والصلة بيننا وبينه غير منقطعة، وقد استفاضت الروايات على أنّه يسمع كلامنا، ويرد سلامنا، بشهادة أنّ عامة المسلمين، يسلّمون عليه في تشهّدهم ويخاطبونهم بقولهم: السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته.

٤ ـ أن يزوره ﷺ لأداء حقّه، فإنّ من كان له حقّ على الشخص فينبغي له برّه في حياته، وبعد موته والزيارة من جملة البرّ لما فيها من الإكرام وليس إنسان أوجب حقّاً عليها من النبيّ.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٦.

هذه هي الغايات المتصوّرة في زيارة النبيّ الأكرم. وأمّا الزيارة البدعية التي تحدّث عنها ابن تيمية وأسماها بدعية تارة وإشراكاً لله تعالى أخرى، فهو ممّا أبدعها ابن تيمية وليس بين المسلمين من يسوّي بين الله ورسوله، كما هو شعار المشركين، كما قال سبحانه حاكياً عنهم، ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالَمين﴾ (الشعراء/٩٨)، والمسلمون بعامّة طوائفهم براء من الشرك وسماته وقد عرف سبحانه أهل الشرك بسمة خاصّة مذكورة في آيتين، قال سبحانه: ﴿ذلِكُمْ بِأنَّه إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وإنْ يُشرَكْ بِهِ تُؤْمِنوا فَالحُكْمُ للهِ العليِّ الكَبيرِ﴾ (غافر/١٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إذا قِيلَ لَهُمْ لا إلـهَ إلّا اللهُ يَسْتَكْبِرونَ﴾ (الصافات/٣٥) فلا تجد مسلماً عندما يزور النبيّ تحت قبّته الخضراء وفي مسجده يكون على تلك الحالة أي إذا دُعِيَ اللهُ وحدَه كفَر به، وإن يشرك به يؤمن به، أو إذا سمع لا إله إلّا الله يستكبر عن عبادته.

ولا أدري كيف تجرّئ الرجل وحكم بشرك قاطبة المسلمين بمجرد أنّهم يطلبون منه الدعاء بعد رحيله، وكم من صحابيّ جليل، تكلّم معه وطلب منه الدعاء بعد وفاته.

١ ـ هذا أبو بكر: أقبل على فرسه من مسكنه بالسنخ حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلّم الناس حتى دخل على عائشة (رض) فتيمّم النبي ﷺ وهو مسجّى ببرد حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكبّ عليه فقبّله ثم بكى، فقال: بأبي أنت يا نبيّ الله لا يجمع الله عليك موتتين أمّا الموتة التي كتبت عليك فقد متّها[١].

(١) البخاري، الصحيح ٢ : ١٧، كتاب الجنائز.

فلو لم تكن هناك صلة بين الحياتين فما معنى قوله: «بأبي أنت يا نبيّ الله» فإن لم يسمع فماذا قصد ذلك الصحابي من قوله: «لا يجمع الله عليك موتتين».

٢ ـ روى السهيلي في الروض الأنف: «دخل أبو بكر على رسول الله في بيت عائشة ورسول الله مسجّى في ناحية البيت، عليه برد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ثم أقبل عليه فقبّله، ثم قال: بأبي أنت وأُمي أمّا الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا»[١].

٣ ـ روى الحلبي في سيرته وقال: «جاء أبو بكر من السنخ وعيناه تهملان فقبّل النبيّ ﷺ فقال: بأبي أنت وأُمي طبت حيّاً وميتاً»[٢].

٤ ـ روى مفتي مكة المشرّفة زيني دحلان في سيرته فذكر ما ذكراه، وقال: قال أبو بكر: طبت حيّاً وميّتاً، وانقطع بموتك ما لم ينقطع للأنبياء قبلك، فعظمت عن الصفة وجُلِّلتَ عن البكاء، ولو أنّ موتك كان اختياراً، لجُدنا لموتك بالنفوس، اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن على بالك[٣].

٥ ـ قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عندما ولي غسل رسول الله ﷺ: «بأبي أنت وأُمي يا رسول الله لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك

---

(١) أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي (٥٠٨ ـ ٥٨١هـ) الروض الأنف ٤: ٢٦٠.

(٢) الحلبي علي بن برهان الدين (٩٧٥ ـ ١٠٤٤هـ) السيرة الحلبية ٣: ٧٤، ط دار المعرفة، بيروت.

(٣) سيرة الزيني دحلان، بهامش السيرة الحلبية ٣: ٣٩١، ط مصر.

من النبوّة والأنباء وأخبار السماء ـ إلى أن قال ـ: بأبي أنت وأمي اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك»[1].

إلى هنا تمّت الإجابة عن الشبهة الأولى وأمّا ما ذكره في ضمنها من أنّه ممّا لم يأمر به الله ولا رسوله فستوافيك الإجابة عنه في تحليل الشبهة الثانية.

الشبهة الثانية: إنّ زيارة النبيّ بدعة

«إنّ زيارة النبيّ ليس مشروعاً وانّه من البدع التي لم يستحبّها أحد من العلماء لا من الصحابة ولا من التابعين ومن بعدهم».

يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره فيها هو نفس ما ذكره في ذيل الشبهة الأولى غير أنّه أضاف في المقام كون الزيارة بدعة.

نقول: إنّ البدعة عبارة عن إدخال ما ليس من الدين فيه، والتصرّف في التشريع بإيجاد السعة أو الضيق فيه، وهذا إنّما يتصور فيما إذا لم يكن في المورد دليل، وقد عرفت تضافر السنّة النبوية، والسيرة القطعية المسلّمة بين المسلمين على زيارته ومع هذا كيف تصح لمسلم داع تسمية تلك بدعة.

ثم إنّ السلفي يطلق على من يقفو أثر السلف، وقد عرفت أنّ السلف منذ رحيل الرسول، دأبوا على زيارة قبره والتبرك به، حتى أنّ الخليفتين أوصيا بالدفن لدى النبيّ، لما فيه من التبرّك بتربته، فأين

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٥.

وصف زيارته بالبدعة من عمل صحابته ﷺ، فقد تضافر عن ابن عمر أنّه كان يأتي قبر النبيّ فيسلّم عليه، أو أنّ عمر بن عبد العزيز يبرد البريد لزيارة الرسول نيابة عنه أو أنّ بلالاً، شدّ الرحال إلى المدينة لزيارة الرسول.

إنّ الحوار الدائر بين الإمام مالك وأبي جعفر المنصور، يكشف الغطاء، ويجلّي الحقيقة:

روى القاضي عياض في الشفاء بإسناده عن ابن حميد قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإنّ الله تعالى أدّب قوماً، فقال: ﴿لا تَرفَعُوا أصواتَكُمْ فَوقَ صَوتِ النَّبِيِّ﴾ (الحجرات/٢)، ومدح قوماً فقال: ﴿إنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أصواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ﴾ (الحجرات/٣) وذمّ قوماً فقال: ﴿إنَّ الَّذِينَ يُنادُونكَ مِنْ وراءِ الحُجُراتِ﴾ (الحجرات/٤). وانّ حرمته ميتاً كحرمته حيّاً، فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولِمَ تصرفُ وجَهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به فيشفّعه الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ولو أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاستغْفَروا اللهَ﴾ (النساء/٦٤).

فانظر هذا الكلام من مالك رحمه الله وما اشتمل عليه من الزيارة والتوسّل بالنبي ﷺ وحسن الأدب معه[1].

---

(١) الإمام السبكي، شفاء السقام: ٧٠.

وأمّا التبرك بالقبر، أو الإقسام على الله بأحد من خلقه والاستغاثة بالميت، فالكل خارج عن ماهية الزيارة، وإنّما هي أُمور جانبية، لا تكون سبباً، لتسمية الزيارة بدعة، على أنّ الجميع جائز بدلالة الكتاب والسنّة وليست تربة النبي الأكرم بأقلّ من قميص يوسف، حيث تبرّك به يعقوب فعاد بصره، قال سبحانه: **﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَألقوهُ على وَجْهِ أبِي يَأتِ بَصيراً وَأْتُوني بِأَهلِكُمْ أجمعينَ... * فَلمّا أنْ جاءَ البَشيرُ ألقاهُ على وَجهِهِ فارتَدَّ بَصيراً قالَ ألَمْ أقُلْ لَكُمْ إنِّي أعلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعلَمونَ﴾** (يوسف/٩٤-٩٦).

وليس ضريح النبيّ ومدفنه بأقل كرامة من تابوت بني إسرائيل وما ترك آل موسى وآل هرون من قميص وعصي وغيرهما، وكان بنو إسرائيل يتبرّكون به في الحروب قال تعالى: **﴿وقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إنَّ آيةَ مُلْكِهِ أنْ يَأْتِيَكُمُ التّابُوتُ فِيهِ سَكينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبقِيَّةٌ مِمّا تَركَ آلُ مُوسى وآلُ هرونَ تَحمِلُهُ المَلائِكَةُ إنَّ في ذلكَ لآيةً لَكُم إنْ كُنتُمْ مُؤْمِنينَ﴾** (البقرة/٢٤٨) قال الرازي: إذا حضر (بنو إسرائيل) القتال قدّموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوّهم، وكانت الملائكة تحمله فوق العسكر وهم يقاتلون العدوّ فإذا سمعوا من التابوت صيحة استيقنوا بالنصر، فلمّا عصوا وفسدوا سلّطَ اللهُ عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وسلبوه، فلَما سألوا نبيَّهم البيّنة على مُلك طالوت قال ذلك النبي: إنّ آية ملكه أنّكم تجدون التّابوت في داره[1].

(١) الرازي، مفاتيح الغيب ٦: ١٧٧.

إنّ الاستغاثة بالنبيّ والولي أحياءً وأمواتاً ترجع إلى طلب الدعاء منهم، فلو لم تكن للميت مقدرة على الإجابة يكون العمل لغواً لا شركاً، وليست الحياة والموت حدّاً للتوحيد والشرك حتى يكون خطاب الحيّ عين التوحيد وخطاب الميّت، نفس الشرك.

على أنّا قد ذكرنا استفاضة الأثر على أنّ الصحابة كانوا يستغيثون بنبيّهم، نبيّ الرحمة وقد ذكر موارده فلاحظ[1].

الشبهة الثالثة: «إنّ الزيارة تؤدّي إلى الشرك»

هذه آخر ما في كنانة الرجل من سهام مرشوقة وقد استدلّ عليه بما لا يمتّ إلىٰ مدعاه بصلة، قال: إنّ من أُصول الشرك اتخاذ القبور مساجد كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿**وقالُوا لا تَذَرُنَّ آلهتكُمْ ولا تَذرُنَّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يَغُوثَ وَيعُوقَ ونَسْراً**﴾ (نوح/٢٣) قالوا: كان هؤلاء قوماً صالحين فلمّا ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوّروا على صورهم تماثيل ثم طال عليهم الأمد فعبدوها.

يلاحظ عليه:

أنّ محور البحث هو الزيارة على ماجرت عليه سيرة السلف والخلف ولم تؤدي طوال القرون الأربعة إلى الشرك، ولم تكن عكوفاً على القبور ولا بتصوير تماثيلهم وعبادتهم مكان عبادة الله، فأيّ صلَة لهذا الكلام بمدعاه من تحريم الزيارة.

---

(١) السبحاني، التوسل: ٦٧ – ٧٧.

إنّ زيارة قبر نبيّ التوحيد ورسوله، دعم للمبدأ الذي جاء به وتأكيد لصحّة رسالته التي كانت في طريق تحطيم الوثنية وعبادة الأنداد والامثال المزعومة، فكيف تقع مثلها ذريعة إلى الشرك ياترى؟!

يقول ابن زهرة:

«فإنّ التقديس الذي يتّصل بالرسل إنّما هو لفكرتهم التي حملوها، فالتقديس لمحمد ﷺ تقديس للمعاني التي دعا إليها، وحثّ عليها فكيف يتصوّر من مؤمن عرف حقيقة الدعوة المحمدية أن يكون مضمراً لأيّ معنى من معاني الوثنية وهو يستعبر العبر، ويستبصر ببصيرته عند الحضرة الشريفة والروضة المنيفة، فإذا كان خوف ابن تيمية من أن يؤدي ذلك إلى الوثنية بمضي الأعصار والدهور فإنّه خوف من غير جهة. لأنّ الناس كانوا يزورون قبر الرسول ﷺ إلى أوّل القرن الثامن ثم استمرّوا على هذه السيرة في العصور من بعده إلى يومنا هذا، ومع ذلك لم ينظر أحد إلى هذا العمل نظرة عبادة أو وثنية ولو تفرّط أحد فهو من العوام ولا يمنع تلك الذكريات العطرة بل يجب إرشادهم لا منعهم من الزيارة وتكفيرهم»(١).

قال الشيخ محمد زاهد الكوثري من علماء الأزهر الشريف:

إنّ سعي ابن تيمية في منع الناس من زيارة النبيّ ﷺ يدل على ضغينة كامنة فيه نحو النبيّ ﷺ، وكيف يتصوّر الإشراك بسبب الزيارة، والتوسّل في المسلمين الذين يعتقدون في حقّه أنّه عبده ورسوله

---

(١) كلام ابن زهرة في كتابه حول حياة ابن تيمية.

وينطقون بذلك في صلاتهم نحو عشرين مرة في كل يوم على أقلّ تقدير، إدامة لذكرى ذلك ولم يزل أهل العلم ينهون العوام من البدع في كل شؤونهم، ويرشدونهم إلى السنّة في الزيارة وغيرها إذا حدث منهم بدعة في شيء، ولم يعدّوهم في يوم من الأيام مشركين بسبب الزيارة أو التوسل، وأول من رماهم بالإشراك بتلك الوسيلة هو ابن تيمية وجرى خلفه من أراد استباحة أموال المسلمين ودمائهم لحاجة في النفس[١].

وأمّا ما رواه إمام الحنابلة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «اللّهمّ لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوماً اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٢]. فإنّ الحديث ـ إذا افترضنا صحة الاحتجاج به ـ لا صلة له بالزيارة، وإنّما يهيب بالّذين يتّخذون قبور أنبيائهم مساجد، يصلّون إليها ـ إذا اتّخذوها قبلة ـ أو لها، إذا عبدوها. ويدل على ما ذكرنا ما روي أيضاً من أنّه ﷺ قال: «اللّهم لا تجعل قبري يصلّى إليه فإنّه اشتدّ غضب الله على قوم اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٣].

﴿وكَفىٰ بِرَبِّكَ هادِياً ونَصيراً﴾ (الفرقان/٣١)

---

(١) تكملة السيف الصقيل: ١٥٦.

(٢) الإمام أحمد، المسند ٢: ٢٤٦.

(٣) كنز العمال ٢: برقم ٣٨٠٢.

٧

تذكرة وإنذار

إنّ لزيارة العظماء والقدّيسين، أصحاب الرسالات آثاراً إيـجابيةً تعود تارة إلى الزائر وأُخرى إلى المزور.

أمّا الأُولى: فلأنّ الزيارة صلة بين الكـامل ومـن يـروم الكـمال، فالدوام على مواصلته محاولة للتخلّق بأخلاقه، واتّباعِ منهجه وتجديد العهد معه، ولذلك لا تجد إنساناً وَقف أمام قبر النبيّ الأكرم ﷺ وزاره إلّا ويتأثّر بشخصه و شخصيّته، وإن كان التأثّر قـليلاً مـؤقّتاً، فـزيارتهم تقترن غالباً بذرف الدموع، والعطف والحـنان عـلى المـزور، وهـي لا تنفك عن تحوُّل نفسيّ وأخلاقيّ وحبّ ووُدٍّ لهم، وبالتالي شعوره بقربه منهم ومشاطرته لأهدافهم، إلى غير ذلك من الآثار الإيجابية التي تعود على الزائر والتي أشرنا إليها في تمهيدنا الذي تصدّرت هذه الرسالة به، ولا نعود إلى تلك الآثار التي تعود إلى الزائر.

أمّا الثانية: أعني الآثار الإيجابية التي تعود إلى المزور فهذا هو المقصود في بياننا، وهو أنّ زيارة العظماء هي تخليد لذكراهم، وتجسيد لرسالاتهم في الأذهان، وبالتالي تكون سبباً لبقائهم أحياءً في كلّ عصر، وقرن، لا يتسرّب إلى وجودهم ورسالاتهم وبطولاتهم أدنىٰ ريبٍ وشكٍّ، فبذلك يتجلّى المزور في كل زمان حيّاً في القلوب وفي المجتمع، كما لو كان موجوداً بشخصه في زمن الزائر، فكأنَّ الزيارةَ استمرار لبقائهم في القلوب تجلي الصدأ عنها، وتتجلّى صحة وجودهم للخلف كما تجلّت للسلف وتكون بمنزلة الدليل على وجودهم ورسالاتهم وبطولاتهم.

فلو حذفنا الزيارة من قاموس حياتنا و تركنا مزارهم وأقفلنا أبواب بيوتهم ولم نهتمّ بآثارهم طوالَ قرون، فقد جعلنا آثارهم في مهبِّ الفناء والتدمير، وبالنتيجة التشكيك في أصل وجودهم وبعثهم، وبالتالي تصبح تلك الشخصيات بعد قرون أساطيرَ تاريخية للخلق، فيتلقّون النبيّ والإمام بل الأنبياء كلّهم قصصاً تاريخية نسجتها يدُ الخيال، كما هو الحال في كثير من القصص التاريخية التي أصبحت تُروىٰ على ألسن الأطفال وفي المنتديات.

إنّ الإنسان الغربيّ يتمتّع في حياته بكلّ ما هو غربيّ إلّا الدين والمذهب، فإنّ مذهبه شرقيّ، لأنّ المسيح وليد الشرق ومبعوثه سبحانه إلىٰ أرض فلسطين وغيرها وبما أنّ الغربيّ لا يجد أثراً ملموساً للمسيح في حياته فمثلاً ليس له قبر حتى يُزار ولا لأُمّه قبر حتى يُنسب إليها، ولا لكتابه صورة صحيحة يؤمن به، ولا لتلاميذه وحوارييه آثار ملموسة، فلذلك صارت الديانة المسيحية أُسطورة تاريخية في نظر الغرب

وشبابه المثقّفين بعد ألفي عام وإن كان الشيوخ والعجائز يُؤمنون به إيماناً تقليديّاً لا علمياً، فالجُدد منهم مسيحيّون في هويّاتهم الشخصية لا في هوياتهم العقلية والفكرية، وممّا أثّر في ذلك هو فقدان كلّ أثر ملموس عن سيّدنا المسيح في حياتنا البشريّة، ولولا أنّ القرآن الكريم جاء بذكره ورسالته ومواقفه لكان الشك متسرِّباً إلى أذهاننا وأفكارنا.

وهذا بخلاف ما لو كان له أثر ملموس يُزار بين آونة وأُخرى، وتشدُّ الرحال إليه عندئذٍ لكانت الديانة المسيحية حيّة نابضة بلا شك وريب.

ومن الأسباب والوسائل التي أضفت على الإسلام حيوية وعلى نبيّه بقاءً في القلوب وعلى مواقفه وبطولاته خلوداً في الأذهان والضمائر، هو وفود المسلمين في كلّ شهرٍ وسنة إلى موطنه (مكّة) و مهجَرِه (المدينة) وزيارة قبره وآثاره وقبور أولاده وأصحابه ومشاهدة مولده ومبعثه وما يمتُّ إليه بصلة طوال حياته، حيث أضفت هذه الوفادة المستمرة على وجوده ورسالته نوراً وضياءً، وواقعية تُذهِب كلّ ريب وشكّ وتقرّ في النفوس عظمته وبطولاته.

وإذا كانت الذكرى ناقوساً في وادي النسيان يذكّرك الحبيبَ ويرِنُّ في أسماعك جماله وكماله، فزيارته والمثول أمام آثاره وعظمته تُؤثر في خلوده وبقائه في النفوس وتزيل غبار النسيان عنه. لذا نرى أنّ الفقهاء أفتوا بأنّه يجب على الحاكم الإسلامي تجهيز المسلمين من بيت المال وإرسالهم إلى الحجّ اذا خلت الكعبة عن الزوار لئلا تُنسى وحتى تبقى خالدة في قلوب المسلمين ومهوىٰ أفئدتهم، فكذلك قبور الأنبياء والمرسلين وفي مقدّمتهم سيّدنا سيد الرسل نبيّنا الأكرم عليه صلوات

الله وعلى آله ومن تبعه بإحسان، وذلك لأنّ هجرة قبورهم وعدم الاهتمام بها تمهيد لنسيانهم ورسالاتهم وبالتالي القضاء على الإسلام.

* * *

أخي القارئ الكريم؛ لقد عالجت مسألة الزيارة معالجة علميّة في ضوء القرآن والحديث الصحيح وقضاء الفطرة الإنسانية، فلم يبق في رجحان الزيارة واستحبابها شرعاً شكّ ولا ريب، وقد تعرفت على آثارها الإيجابية للزائر والمزور، وقد أزحنا بعضَ الأشواك النامية في هذا الطريق، فعلى المشرفين على القبور والأضرحة ونخصّ بالذكر قبرَ سيد البشر ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ استقبال الوافدين عليها بوجوه مشرقة مرَحِّبين بضيوف النبي مهيّئين الأجواء الوديّة المناسبة للزيارة، وحشد كلّ الإمكانات الماديّة والمعنوية لإقامتهم في مدينة الرسول ﷺ إقامة مقرونة بالارتياح.

ولا تفوتنا الاشارة هنا إلى واجب الخطباء والعلماء في إرشاد المسلمين وتوجيههم إلى الآداب الصحيحة للزيارة وتذكّرهم بما ينفعهم في الدنيا والآخرة، حتى يتلقّى الزائر أنّ الحضور في مزاره الشريف وسيلة للتذكرة به وهي لا تنفك عن العمل بشريعته ودينه وسنّته والتخلّق بأخلاقه.

نحمده سبحانه ونستعين به وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

جعفر السبحاني

٢٤ محرم عام ١٤١٦

فهرس الموضوعات